18+
عبد الله مكسور
أيام في بابا عمرو
رواية كولاج
طبعة ثانية
فضاءات للنشر والتوزيع

أيام في بابا عمرو

رقم الايداع لدى
دائرة المكتبة الوطنية
2012/11/4110

813،9
مكسور، عبدالله
أيام في بابا عمرو - عبدالله مكسور - عمان: دار فضاءات، 2013
الواصفات: / القصص العربية// العصر الحديث.

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية - 2013

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

أيام في بابا عمرو - عبدالله مكسور - سوريا
دار فضاءات للنشر والتوزيع - المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين - مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaa.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: نضال جمهور
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

عبدالله مكسور

أيام في بابا عمرو

رواية

أوراق من الذاكرة

الجزء الأول..

الإهـــداء..

إلى حبات التراب المشكلة لإسمها عبر حروفٍ خمسة..

إلى.. سوريـــــا..

الوطن والأم..

((البحث عن الأوطان ضمن أحرف الأبجدية مهمة قاتلة،
كاستنهاض ذاكرة معطوبة مثقلة بالموت والجوع والفقر والذل
))

المؤلف

هل يسكن بيننا الحب..

سؤالٌ لايزال يرن في مخيلتي منذ حدث فراقنا الأخير، فرغم كل البعد و السفر والحزن و الحقائب المتعددة و الأختام التي اعتمرت بين صفحات جواز السفر، إلا أنني لازلت أحتفظ برقمٍ في هاتفي المحمول يضمن الوِصال المنقطع بيننا، لا أعرف لماذا في هذا الصباح بعد أن شربت فنجان قهوتي داهمتني الذكرى وعاد الموقف الأول، دائماً هنالك موقفٌ ما أولٌ يرفض الزوال، و برغم إصراري على الهرب من الصور المتتابعة التي تتالت على عيني في الغياب إلا أن الإصرار كان يتتابني في المضي نحو العودة من جديد، صوت الريح في الخارج أغواني بالنظر من شرفة نافذتي المطلة على الشارع الطويل أسفلها، بعض الأشخاص يتطايرون كما الأوراق تحت الغيوم العالية، يتسابقون في غمرة الزمن بحثاً عن ذواتهم الضائعة في هيبة الحياة وسرعة الموت..

اشتقتك سوريا.. قلتها ونقلت عيني عن زجاج النافذة إلى صدر الشارع الممزوج بآلام وآمال من مروا من هنا، سألت نفسي: لماذا قلت اشتقتك ولم أقل أحبك سوريا؟

نحب أوطاننا ونعشقها ونقف على ساق واحدة أمام تاريخها وحاضرها، كمن يقف في حضرة الموت، لكنها باتت مقابر لنا أكثر مما هي أماكن عيشنا

وحياتنا. نحبها وتغدرنا و تخوننا في كل حين، استقرارها مشبوه بدمنا وبظلمنا وبخوفنا وبقمعنا وكأن خلفاءها القادمين من سفوح الجبال صاروا حرساً على أبواب السماء فمن يحاول الاقتراب منها أو حتى لمسها أو فك ضفائرها أو مغازلتها مفقود مفقود مفقود..

في هذه البلاد كل شيء على مايرام، وكل شيء مجبرٌ أن يكون على مايرام كي لا يقول المخبر السري أن في الأمر ريبة، في هذه البلاد أحياناً يتشابه الإنسان والنبات فكلاهما يسعى للشبق وكلاهما تترك الأيام في خلاياه جرحاً لا يرضى الإندمال، و أنا برغم كل هذا أحاول اليوم أن أهرب من الذكرى التي أتتني على عجل مع فنجان قهوتي الصباحية، فهل ستسامحيني يا ابنة العم في هواي الأموي الطويل الذي سكنت فيه وسكنني لسنوات طوال، ياحبيبة عمري و رفيقة أسفاري يا عز نفسي، يا أنتِ .هل ستسامحيني يوماً على غيابي الطويل رغماً عني ورغماً عنكِ؟ أنت التي لم تخشي يوماً الإبتعاد وأنا الذي انسقت للقدر كعاشق استسلم تماماً لزواج حبيبته أمام عينيه.

كان لي صديقة منذ زمن طويل، تذكرتها حين رأيت أحد الأصدقاء القدامى على صفحتي في الفيسبوك، وبعد التحية والسلام والسؤال عن أخباره قال لي إنها عاشت قصة حب عنيفة لم تكتمل لأن حبيبها ذهب إلى الخدمة العسكرية ولما انتهى منها وجدها ترضع ابنها الثاني!

لم أسمع أخبارها أبداً فربما داهمتها نوبة حنينية للإغتراب مثلي أو قضت نحبها باكية على نصيب لم يكتمل وربما تاهت في زحمة الطرقات اللا متناهية، تذكرتها لقد أتت ذكراها منذ عامين تقريباً حين رأيت أحد الأصدقاء القدامى

على صفحتي في الفيسبوك وبعد التحية والسلام والسؤال عن الأخبار التي تعنيه والتي لاتعنيه أتى على ذكرها و كأنها قنبلة موقوتة مهيأة للانفجار بأية لحظة..

هكذا هي الحال في هذه البلاد، كل شيء لا يكتمل وكل شيء يخضع لتقدير الحظ والقدر فإما يكون أو لا يكون وفي كلا الحالتين يكون المواطن كمحكوم يحلم ببراءته كل يوم ولكن عبثاً فالقاضي أخذ حبة النوم المباشر وبات معقّب المعاملات أمام القصر العدلي أحد أهم الشخصيات هناك.

كتبت لي مرة على دفتري الجامعي كلمات لازلت أحفظها وكأنها على سطح الورقة البيضاء تنتقل بين قوسين:

((أحاول أن ألملم ذاتي المبعثرة فيما أخطه من كلمات لعلي أجمع ذاكرتي فأعرف ما أريد، ينتابني شعور بأنني ريشة تتقاذفها الريح ناقلة إياها من مكان إلى آخر أو أنني شجرة غير راسخة الجذور فلا هي استلقت على الأرض مستكينة للعاصفة ولا هي ثابتة في التراب، تميل مع الريح حيث مالت)).

وكتبت لها على ورقتها البيضاء:

((وكأنك محتاجة جداً لميناء سلام!!)).

لم تسألني يومها إلا عن إشارتي التعجب، و كأن لاشيء في حياتنا يثير التعجب.

في ذات ثلاثاء من شتاء عام 2003 للميلاد أتذكر أني بحت لها لأول مرة عن إعجابي بها وكما أغلب قصص الهوى التي تنبت على هذه الأرض بلا جذور في تربة مالحة كان قدرها الإستسلام للموت دون أن تغادر أياً منّا،

وبعد مقاربتها للموت بعدة سنوات أخذت ورقة تخرجي من الجامعة و لم يكن أمامي العديد من الخيارات، فكانت الطريق الواصلة للمطار هي أقصر الطرق المؤدية إلى المستقبل، كان بيننا وعود صامتة للحفاظ على الحب والزمان والمكان، كان هناك إصرار أن تظل عقارب الساعة واقفة عن الدوران عند لحظة وداعنا حتى نلتقي وكأن العمر بين يدينا وملكنا، نوقفه متى نشاء و نعيده للحياة متى نشاء على ساق واحدة على ساقين وروح، المهم أنه بيدينا وأن عودته لا يمكن أن تكون إلا بفرمان من كلينا.

صوت أيلول يغويني بالبوح كذلكَ فتح شباك الذاكرة على مصراعيه بحثاً عنها، ولكن هل العمر تقدم كفاية لكي أحترم التجاعيد التي ظهرت تحت عينَي وعلى كفي، أنا الذي سافرت بأمر من الحياة بحثاً عن حياة أفضل وربما وطن أفضل لأكتشف بعد كل بوابات المطارات وكل الأحزمة أن وطني ما زال يعيش معي في حقائبي وبين شفرات الحلاقة وقارورة العطر.

أفتح شباك نافذتي فتلفحني رائحة المطر أحاول أن أتنفس قدر ما أستطيع، أن أملأَ رئتيَ من زمن سيمضي بكل مافيه، لكني مع الوقتِ صرت أخاف حقيقة من ذهاب المطر وغياب الغيوم خلف السماء، كانت أحد جارات أمي تقول: دوماً الدعوة تحت المطر لاترد، فماذا سأطلب الآن؟ سأغمض عيني على طريقة السواح في مغارة أوقاس أو نافورة تريفي و لن أرمي مثلهم قطعة نقود وسأقول ما أريد في سري.

رحلة العودة إلى هنا كانت مليئة بالأسرار والعواطف فثمة شيء ما يحترق بداخلي بدون رائحة، تمنيت لو أتيت قبل ذلك بزمن طويل ولكن لم يكن هناك

فسحة من الزمن كافية للقدوم فكان من كان هنا أشجع وأقوى وربما أقدر، تلقيت العديد من الاتصالات الهاتفية تسألني عن الأوضاع وحال الأهل وتلعن الزمن الرديء، وكأنهم اكتشفوا تواً أننا نعيش زمناً قبيحاً منذ عقود خلت!

حقائب عودتي كانت قليلة، لم تكن بحجم عواطفي،ربما أصابتها نزلة برد مفاجئ كالتي تصيب هذه البلاد مع نهاية كل أيلول، لم يكن أحد يتوقع أن تغلي الأوضاع في منتصف آذار، كل منجّمي الأرض لم يتوقعوا أن يكون ذلك، أحاول أن أتذكر بعض أصدقائي هنا، لقد طال بي الغياب ولكنني عدت كالغيم الذي يسافر في كل الأرض ثم يعود، كالطيور التي تهاجر بين كل الجهات، كسمك السلمون الذي يسافر مسافات طويلة بين الأنهار والمحيطات ثم يختار مكاناً دافئاً لوضع أبنائه خوفاً عليهم من سعة البحر.

أصوات الأطفال على درج العمارة كان أقوى من الصمت فلم يتمالك صمتي نفسه أمام ضجيجهم المتعمد، كنت أتخيلهم ببطونهم المنفوخة وأقدامهم العارية من كل شيء إلا من غبار الوطن، وكأنهم حجزوا لأنفسهم مكاناً في زمن لم يسكنه أحد قبلهم، كانت أصواتهم تعلو وتخبو كإيقاع موسيقى الأرض بين بوابتي الحدود لشعبٍ اختار لنفسه زمناً جديداً وقرر أخيراً أن يخرج من سطوة المارد الحاكم بأمر الفانوس، أتذكر أختي الكبرى التي تزوجت ثم مات زوجها بعد عقد قرانها مباشرة ولم تعرف أبداً كيف يكون الرجال فقد ماتت بعد حين من رحيله الأخير بسرطان الثدي، كم هي حمقاء هذه الحياة تعطينا وتمنحنا وترسم لنا طوابق من خيال ثم بلمح البصر

تخطف كل شيء دون استئذان ودون إنذار فنصل فوراً إلى مرحلة الغليان دون المرور بكل التقلبات المائية فوق النار.

تصيبني عادة حمى كراهية التكنولوجيا فأجلس زمناً طويلاً دون أن أفتح بريدي الإلكتروني أو حسابي على الفيس بوك هرباً من حياة افتراضية أوجدها واقع الإغتراب علي حتى اخترقت حياتي وصارت شخوصاً يعيشون معي، يتنقلون معي، يضحكون لقهقهة مصطنعة أطلقها، يفرحون لسماع أخباري وأنا لم ألتقهم أبداً إلا في تلك الساحات وربما إلى اليوم لم يدركوا أنهم كانوا يرقصون على ذكرى الألم التي اعتصرت ومازالت تعتصر قلبي وضميري تجاه كل ما حدث ويحدث.

تذكرت أن لي بعض الأقراص المدمجة فانتابتني موجة حنينية لسماع فيروز وبدون أدنى اهتمام فتحت الدرج وتناولت أحدها ولم أكن أعي أني سأفتح أعظم الجروح بمجرد أن تصدح هي معلنة احتراف الحزن.. *عشرون عاماً وأنا أحترف الحزن والانتظار*.. تقعدني فيروز على أول مكان يصادفني لتعبر هي من بوابة الدموع إلى صقيع الشمس والبرد،

عشرون عاماً وأنا يسكنني الحنين والرجوع

كبرت في الخارج

بنيت أهلاً آخرين

كالشجر استنبتهم فوقفوا امامي

صار لهم ظلُ على الأرض

ومابقي لي ظلُ..

دموعي باتت تسكن وجهي وتغطيه تماماً وكأني كنت بحاجة من ينكش جرح الحنين والرجوع، فهل صحيح كبرت في الخارج؟ بحدسي لم أكن أؤمن أن العمر قد تقدم بي، كنت أرفض ذلك تماماً، فلذلك تحسست مرآة صغيرة قربي، نظرت إليها، بحلقت فيها، تراءت لي من خلالها بعض المشاهد القديمة حاولت أن أخرج عن صمتي أكثر، فضلت السكوت فمن قضى عمره مخروساً لا يمكن له أن يتحدث أمام مرآة!!

فلسفة الصمت تغويني فأبدأ بكتابة رواية جديدة لعل الصمت ينجيني من الصخب الناضج تماماً في داخلي، أستغرب مع امساكي للقلم حول تلك الجدلية بأن الكاتب لا ينتج أبداً إلا في حالة الصمت والصخب الجديد، كعاشق يحمل القلم ليكتب خطابه الأول، كراهب يقف أول مرة في القدس الأقداس، كطالب علم شرعي يقف إماماً لأول مرة. ترجلت أمام الساحة البيضاء محاولاً أن أبدأ، فأتذكر ناجي الزواوي الذي عرفته في سنوات الغربة الطويلة حيث كنت ألتقيه في زاوية أحد المقاهي طيلة غيابي في منفاي الإختياري لابساً قبعة على طريقة الرفيق جيفارا، كان معجباً به، أما أنا فلم أكن أحب تمجيد الأشخاص، وأهزأ من أمة لا تعرف من تمجد ولمن تسبّح ولمن تقف حداداً.

كان يقول لي دائماً صمتك يقتلني فأقول له: الصمت في حرم الحماقة قداس من نوع آخر لابد أن تعرفه يا ناجي، للصمت أشكال فهناك الصامت والناطق والمقدس والصوفي فاختر لي أيها العربي اللابس عباءة غيرك أي طريقة تريد لصمتي لكي أتابع أو أتنحى و أعتزل صمتي الإختياري، دائماً

كان يسكت ولا يجيب، ويقرأ لي خاطرة كتبها قبل لقائنا فأستمع له بلذة الصمت الذي أختار وقد كنت غالباً ما أحتفظ بنسخة من مقالاته رغبة مني في ممارسة صمتي في لحظات وحدتي أيضاً..

ناجي كان ممن هرب من حماه أو أُجبِرَ على الهرب منها والخروج محمولاً على صدر أمه، أذكر أنه روى لي رحلة السبي العظيمة كما كان يحب أن يسميها أو يروق له أن يسميها بذلك فقد كان الأكثر حظاً بين إخوته فهو الوحيد القادر وقتها على الشعور بالشبع من صدر أمه بينما هم جميعاً يلوح الموت فوق رؤوسهم والطير تنتظر تفسخ جثثهم على الطريق المتعرج نحو المجهول، كبرَ ناجي في الغربة و كبر معه عشق وطنه الأزلي الذي لم يمنح والده أو والدته متراً من تراب ليكون مثواهم الأخير فتاهوا في زحام الغربة والبرد فلا التراب يعرفهم ولا الأحجار تعرفهم ولا زوار المقبرة في الأعياد يعرفوهم، وقد كان ناجي دائم التندر بقسوة المشهد فيتخيل أن شواهد القبور تحدث بعضها البعض دائماً عند خلو المقبرة من كل إنسٍ فتقول الواحدة للأخرى: تحتي يرقد رجل من دار فلان فترد الأخرى وتحتي ابنة العائلة الفلانية أما شواهد قبور أهله فقد كانت تمارس فعل الحياء والإنشغال بالدعاء الدائم للمجهول الذي يرقد تحتها فتهمس في سرها: نم أيها المجهول في كل شيء.. حتى في سبب الرحيل!!

ناجي كان دائماً يرافق فاتنة يأتي بها من الأسواق أو البارات والحانات، فهناك رغبة عارمة في كسر الآخرين كما كان يقول: مثلما كسروا أهلي في زمن

مضى. حقيقة لم أكن أفهم فلسفته التي كان يرددها على مسمعي خلال لقاءاتنا المتكررة.

أتذكر ورقة من ناجي أخذتها في أحد الجلسات يوماً ولشدة إعجابي بها وضعتها في معطفي الأسود بشكل دائم، فقد كانت تعطيني حنيناً من نوع مختلف فأنهض لفوري لأحضرها، أشعر برغبة عارمة بقراءتها وتمعنها كلمة كلمة دون أي حذف:

في حماه كان لي حبيبة، ربما ماتت وربما سافرت وهاجرت وربما مازالت هناك تحت الضرب والقمع والقتل والتدمير، في حماه كان لي حبيبة عرفتها منذ زمن بعيد وظلت ذاكرتي تختزن كل خلايا جسدها وطقطقات ضحكاتها وقياس خصرها. في حماه كان لي حبيبة تحمل في رائحة عباءتها أمجاد أبي الفداء وتاريخ زمان من الأولياء والأتقياء والصحابة والدراويش والأنبياء كنت حين أقف أمامها أحاول أن ألمس يدها فتدور بوجهها صارخة في عمق الفضاء المفتوح على جراح لم تشفى بعد، كنت أبحث تحت حجابها عن خصلة شعر أمررها على جسدي في غربتي أو أحملها كجواز سفري في طيات ملابسي. في حماه كان لي حبيبة أعرفها وتعرفني و يعرفني أهلها كما أعرفهم، أحبها وتحبني و يحب ناقتها بعيري. في حماه كان لي حبيبة تنام على كتفي وتداعب النسمات حجابها فتطير الدموع على شعري لتحكي لي عن والد مات أو أخ ذهب خلف الأبواب الحديدية أو آخر سافر إلى البعيد البعيد خلف حدود باردة لا أحد منا يعرف وجهته، يومها سألتها عن أخباره فبكت

طويلاً ثم قالت: لست أدري يا أيها الغالي الذي بقي هنا على أنقاض جراح.. لست أدري.

في حماه كان لي حبيبة تحمل في قلبها يقينا بالله و بحجارة اختبأت في رحمها كل الدماء وكل الثارات القديمة مستعدة للنهوض بكل لحظة، باحثة عن رجل يحملها، في كل لحظة كان الموت يداهمنا أمام أعين الجميع، ثمان وعشرون عاماً من عمري و أنا أتنفس من عشقها ومائها ورائحة جسدها، فهل بقي منها ما بقي في ظل ما يدور في الخفاء و في العلن أمام صمت الجميع؟ في حماه كان لي حبيبة حملت اسمي على صدرها وكتبتني بين ملائكتها وشيوخها ورجالها وشبابها وأطفالها وباحت لي بحبها وعشقها رغم الوشاة ورغم كل التجارب وكل رجال القبيلة، فهل أستطيع اليوم بوحاً يليق بحجم حنيني إليها؟ في حماه كان لي حبيبة تسكن كل الأماكن وتسافر في كل الأزقة وباتت تسقط اليوم أمام زناة الأرض و سارقيها.. يا حبيبة عمري صبراً يا رفيقة دربي صبراً يا أم أطفالي و أحلامي و رواياتي صبراً فالتاريخ لن يعيد نفسه أبدا.. في حماه كان لي حبيبة و الآن لا أدري أهي محاصرة في مدخلها الشرقي أم الغربي أم ما زالت كما تركتها يوما تجلس على كرسي في حديقة أم الحسن وتنظر إلى الناعورة الكبيرة تنتظر عودتي.. في حماه كان لي حبيبة..

كان لي حبيبة أيها السامعون والمارون بين الكلمات العابرة يا أيها القابعون في دباباتكم و في لباسكم العسكري و لباسكم الأمني يا أصحاب السيارات الغالية الثمن و أصحاب البدلات التي تلبس بأكثر من وجه، يا أصحاب الساعات الغالية والعطور الفارهة والنظارات الأجنبية.. احذروا المساس

بحبيبتي.. احذروا المساس بحبيبتي فمليك الجن ساكن بين خشباتها وفي صوتها العالي وتحت حجابها.. وحبيبتي يا قوم مشروع شهادة منذ الأزل.. وما زال لي في حماه حبيبة.

يعود إلى خاطري وكأنه حاضر أمامي بشعره المسبل على صدغيه ببراءة الأطفال وعيونه الواسعة المعقودة الجوانب بطريقة تثير الإنتباه والإعجاب، ناجي كان أكبر من مجزرة حماه بعدة أشهر فكان يقول دوماً: حتى أصغر أهلي أكبر من مجزرة حماه، وكنت دوماً أرد عليه بأن الجملة الأخيرة مأخوذة من مريد البرغوثي فيقول لي: كانت لمريد ولكن حين قالها باتت ملكاً للآخرين فمريد أكبر من دولة اسرائيل بأربع سنوات.

في حضرة النابلسي كانت تدور نقاشاتنا و حواراتنا في الأدب والسياسة والثقافة والجنس أحياناً، كان صالوناً صنعه المنفى والوطن في غفلة من الزمن ومن جوازات السفر، على مقربة منا كان هناك ثلة من الرفاق باعوا أنفسهم عبيداً منذ زمن طويل واستهانوا ذلك في ذواتهم مقابل أن يجمعوا أموالاً بحجم الكون متناسين أن هناك من سيدفع الفاتورة عنهم ومن أصلابهم، هذه النماذج كنا نراها دوماً تتصدر المشهد الثقافي والسياسي والأدبي وحتى معارض الفنون والرسم والنحت والنقش بالحناء، نراهم يقفون أمام لوحة مبحرين في ألوانها وخطوطها العرضية والطولية متظاهرين بفهمهم العميق لكل المدارس الأدبية والفنية في العصور القديمة والحديثة واللاحقة وهم في حقيقة اللحظة يسألون أنفسهم على أي حائط فارغ سنعلق هذه اللوحة فهناك متسع من المساحات البيضاء التي لابد من شغلها لكي نرضي ذواتنا فكما الجاهل يخاف

من دخول بيت تتصدره مكتبة تعج بالكتب المرصوصة كذلك الناس ترسم صورة بحجم اللوحة المعلقة على الحائط لصاحب البيت، كنت أتجاهلهم دوماً أو أحاول أن أتجاهلهم، وحدهم هم يشعرون بحقيقة أنفسهم عندما ينظرون للمرآة دون أي قناع يستر توحشهم..

دوماً في الغربة تمر الأفكار دون أوامر العسكر ورقابتهم ودون نظرات الوشاة وأزلام القبيلة، في الغربة لكل شيء إذا ما تمّ نقصان، فكل فنجان قهوة تشربه تقارنه فوراً بذلك الذي كانت أمك تغليه لك، وكل رغيف خبز بذلك الخارج من التنور في عز الحر من بين أيدي جدتك، وكأس الشاي غير ذلك الذي كنت تحتسيه بين أقرانك، في الغربة دائماً تتذكر و أنت ترقد على أفخم فرشات النوم تلك الفرشة الصغيرة التي كنت تتقاسمها مع أخيك في ظلام الليل وبرغم برودة تلك الأيام تشعر دائماً بحنين لها.. إن لم تشعر بتلك الأشياء يوماً فأنت لم تكن في غربة أبداً..

بعض النوبات الحنينية التي تأتي كما الوجبات السريعة لاتعني أبداً تعلقاً بالبلاد أو معرفة بها ولاتعدو أن تكون كوميض إشارة ضوئية في طريق بمجرد أن تعبرها تنسى تماماً أنك وقفت بها.

ذات شتاء وبينما المطر كان يسيطر على مجمل المدن و المظلات باتت تسيطر على الفضاء فوق الرؤوس كان هناك متسع من الوقت للنابلسي أن يتحرك وكأنه يستعيد عافيته من جديد باحثاً عن ملاذ له بين قطرات المطر القادم من عند الله، كنت في تلك الظهيرة مسترخياً بعد أن تحدثت مع ناجي بعد وجبة الفطور واتفقنا على اللقاء مساءً، فبدأت بالكتابة وأنا أتأمل تلك الموقدة أمامي

في قلب الحائط، حاولت أن أستعيد فيها موقد جدتي عائشة ولكنني لم أستطع فبالغربة من السهل جداً أن تكشف التقليد من الأصل، عندما طرق باب غرفتي فتحت له على عجل فسألني مباشرة عن نبيذ بحجم الكون!!

استغربت يومها سؤاله فهو يعرف تماماً أني لا أشرب الكحول إطلاقاً ولكنه أراد أن يستفزني و يستنهض بعض القوى المتراخية أمام النار، فقلت له: العسكر في حالة سبات شتوي.. فرد على الفور: ألا يمكن تحريكها بحسب قانون الطوارئ!!

كان هناك دوماً تواطؤ واضح بين الجميع، تواطؤ غير ظاهر للآخرين كان خفياً بيننا فنفهم ما نريد بالوقت الذي نريد وبالطريقة التي نريد.. في ذلك اليوم زارني على عجل ليحدثني عن وصفة سحرية من الزنجبيل والزعتر والعسل وبعض الموالح فإنها تفيد في كثير من الأحيان كما قال.

في الحقيقة لم يكن لدي كثير من الأشياء لأفعلها في ذلك الوقت فما كان لي إلا أن أستمع له دون أن أبدي أي رد فعل على ما يقول، النابلسي رجل كان يبلغ من العمر وقتها ما يقارب الأربعين فهو يكبرني بأكثر من خمس سنوات، لم يتزوج فقد كان قلبه معلقاً بإبنة جيرانه التي تركها كالوطن بانتظاره حتى يعود، بعض الأوطان تنتظر عودة أبناءها وبعض الأوطان تنسى أبناءها و بعض الأوطان تقامر بأبناءها وبعضها الآخر لا يعرف من أي رحم ولد أبناؤها.

كما قصص الحب العنيفة التي كنت أسمع عنها كانت قصته في التلذذ بذكرها والتغني بإسمها على طريقة الشعر العربي فهي (منى و أمنية و مناء و أماني و أمينة و آمنة و منية) :

أحب من الأسماء ما شابه اسمها

أو أشبهه أو كان منه دانيا

منى تصغره بعام واحد و بيتها يلاصق بيتهم على امتداد القلب وأشجار الزيتون الوارفة الكبيرة تتسلق كما المشاعر لتمتد فوق الهواء مباغتة بيت النابلسي، وصوت فيروز الصباحي كان يخترق المسامع صادحاً كل يوم ناقلاً مشاعرا اعتمرت في قلب الوله المعذّب بآخبار من لم يمروا ومن لم يأتوا بعد.

النابلسي يضع في جيب بدلته العلوي بقية من ورق الزيتون الوارف الظلال، وكلما اشتد به الحنين كان يتلمسها دون أن يخرجها كمن يتلمس أغصان شجرة دون أن يراها فيسرق الزمن من عينيه دمعة لم تكتمل وتسمع أذناه صدى تغاريد عصفور وقف للحظات على الأغصان ومضى دون أن يكمل معزوفته، إذا كانت ستكتمل يوماً لن يكون هناك غربة، وإلا ماذا تعني الغربة عن الوطن؟

بعد لقائنا الأخير السريع هذا قال إنه سيسافر بعيداً ليبحث عن علاج لكليتيه الضامرتين حيث سمع عن معالج بالأعشاب يعيش في أُقاصي جبال المغرب العربي بين الكهوف والسراديب الطويلة، لم أرَه أبداً منذ ثلاث سنوات ولكن كلمته التي قالها لي وهو يشد على يدي في المطار: راجعين يا صديقي.. راجعين!! مازالت في البال.

لم يقل وداعاً أو إلى اللقاء أو في أمان الله، قالها صامتاً وفي قلبه حزن البشرية جمعاء، قال راجعين، راجعين يوماً ليس إلى الغربة المقيتة وإنما إلى وطن يعرف حجم أبنائه.

يومها كانت الدمعة تتكور تحت نظارة ناجي وترفض أن تسيل، فجبهته العالية كانت أكبر من كل الدموع ومن كل الأوجاع، أما أنا فلم أجد إلا أن أستسلم للصمود، فهل يستسلم الإنسان للصمود وجعاً وألماً وخوفاً ألّا يجد أحداً في غربته يتيح له متعة الشعور بالإنكسار.

في طفولتي كانت أمي ترفض أن تراني أبكي بحجة أني أكبر إخوتي وعليّ أن أعيش الصمود أو على الأقل أن أمثّل الصمود أمامهم لكي أعطيهم الفرصة بالشعور بالأمان ومتعة الخيبة بالإنكسار، منذ إلتزامي الأول بالصمود لم أشعر بالخيبات تتوالى أمام صلابتي القابعة كقناع يرفض الزوال في صيف عام 2000 وقد كنت أبلغ السابعة عشرة من عمري شعرت بكذبة الصمود عندما ذهبت مع رحلة الكشافة إلى الجولان السوري المحرر كما يحبوا أن يصفوه، وقفت على ارتفاع لأرى كل الدمار والعمران في آن، لأرى العلمين يرتفعان بمواجهة واحدة وكأن شيئاً لم يكن طيلة عقود طويلة، وكأننا لم نخسر شيئاً ولم يربحوا شيئاً. حاولت أن أمسك الجولان المحرر فلم أستطع وأن ألمس الجولان المحتل فلم أستطع، كان هناك مفارقة عجيبة لسلسلة من الوجوه المتشبثة بالصمود قناعاً وبالوطن مقصداً، ببرودة أعصاب كاملة حملت منظاراً كان مع أحد أعضاء الفريق اللبناني المشارك في الكشافة لأنظر

إلى وطني المحتل خلف الأسلاك الشائكة ولفضولي الصامد أيضاً نظرت على الضفة الأخرى فلم أجد فرقاً بين وطني المحتل أووطني المحرر.

يومها لم تستمر تأملاتي طويلاً لأننا بإسم الصمود انطلقت حناجرنا تقول :

الشعب في سوريا والشعب في لبنان للأرض والحرية والدرب توأمان، فنحن شعب واحد وموقف موحدُ من أول الزمان لآخر الزمان.

بإسم الصمود أكملنا مسيرتنا و بإسم الصمود أوقفوا المسيرة بعد اغتيال الحريري في فبراير (شباط) من عام 2005.

منذ ذلك الزمان لم يسألني أحد عن زيارتي تلك وعن السلك الشائك وعن المنظار وعن العلمين وعن فتاة غرقت في حبها عشرة أيام ثم انقطع الوصال بيننا. لم يسألني أحد عن شيء وكأن رؤية أوطاننا الأخرى لاتعني أحداً أبداً برغم حضورها في كل الأدبيات والمجالس العالمية!!!

أحمل الرسالة التي أحتفظ بها من ناجي وقد تلطخت بحضور ما مرّ مِن أمامها في الغربة والوطن فأعيدها إلى مكانها الذي كان وكأن شيئاً لم يتغير، وأدير جهاز المسجل ليصدح مرسيل خليفة:

شدو الهمة الهمة قوية، مركب يندە على البحرية يا بحرية هيلا هيلا..

يستمر مرسيل وأعود لأقف أمام نافذتي وليعُد البحر أمامي وصوت باخرة تعبر كل مياه الأرض لترسو في مينائي الوهمي بحثاً عن سلام لا يأتي وربما لن يأتي.

في البحرية كان هناك رجل من بلدنا اسمه شعبان الخطاب هو رجل يألف رجل، لم أره أبداً ولم ألتق به ولكن سيرته الحاضرة دوماً واسمه الذي حملته

أجيال كثيرة من نسله ومن غيرهم جعله حاضراً في كل الأوقات فما وصلني يوماً أن الرجل كان يحضّر لإنقلاب عسكري كبير يطيح بالجميع ويعيد الحق لأصحابه في الحكم ولكنهم اكتشفوا أمره وأمر خليته فتم إعتقاله وترحيله إلى سجن تدمر المخيف وهناك لم يسمع أحد عنه وانقطعت أخباره ولكن أمي أكدت لي بعد سنوات طوال أن أحدهم قال لها أنه سمع اسم شعبان أحمد الخطاب على أحد الإذاعات ضمن قائمة طويلة من الذين تم إعدامهم.

قالت أمي ذلك وهي تنزف دمعاً غالياً على ابنه البكر الذي قتل برصاص الغدر دون أي سابق إنذار حيث كان يعمل مهندساً مدنياً يساهم في تشييد البيوت والأبينة فقتلوه لأنه وقف مع شعبه ضد القتل والتنكيل وربما ثأراً لدماء أبيه الذي قتل قبله بأكثر من ثلاثين عاماً فهل من الممكن أن ينام الثأر ثلاثين عاماً وإلا فماذا تعني الغربة عن الوطن في قلب الوطن!!!

هي بلادي التي عندما كنت أتحدث عنها أقول فيما سبق: هناك يحدث واليوم صرت أقول هنا يحدث والفرق كبير بين هنا وهناك، هي مسافة بعمر الزمن وحجم الدماء التي سالت والحناجر التي صدحت طيلة فترة من الزمن مطالبة بالتغيير.

عندما أخذت قراري بالعودة إلى هنا وترك هناك ليصبح هناك هنا وهنا هناك، وأمام هيبة هذا القرار تركت كتابة روايتي الثالثة التي كنت أستعد لإطلاقها وانطلقت باحثاً عن وطني الذي أحب وأعشق، لم أكن أفكّر يوماً أن أكون كاتباً أو روائياً فالصدفة أتت بي إلى طريق الكتابة دون أي تخطيط مسبق ولولا وجود زوجتي رفقة شقور في حياتي لما فكرت يوماً في نشر نص واحد

مما أكتب، فالمبادرة دوماً لها والقيادة في النشر دوماً لها، لم تقف يوماً في وجه طريقي وعندما أخبرتها بنيتي القدوم إلى هنا وترك هناك، بكت كثيراً ولكن إيمانها المطلق بعدالة قضيتنا دفعها للقول:

إذهب ومعك روح القدس..

الخوف يسكن كل الأماكن، خوف على البلد، على الحارات، على الأعراض، على الأملاك، على الثروات، على المشاريع الشخصية، لقد صدمني المواطن السوري العظيم في تصديه للموت و عدم الخوف منه.. لن يعود المارد إلى مصباحه السحري بعد أن تخلص من حارسه القبيح.. لن يعود.. لن يعود ومعه الله.. هكذا أخبرني العندليب غداة إلتقينا على منحنى، في أقل الأيام ذهبت ومضيت عبر عدة مطارات حتى وصلت إلى مطار الملكة علياء الدولي في عمان، كانت زيارتي الرابعة إلى عمان التي صرت أعرفها أو حاولت التعرف عليها من جديد.

في عتمة اللحظة كان لا بد أن أفكر أكثر في قراري و أضع أمامي أسباباً واضحة لمسيرتي، عندما كانت عجلات الطائرة تلامس أرض مطار الملكة علياء كان القلب يهتف زهواً بقرب اللحظة الموعودة فقد صرت أقرب إلى الشام مهوى الأفئدة ومسقط القلب، هي مفارقة رهيبة أن تفكر في بلد وأنت تهبط في بلد آخر، فهل قدر الشام أن تسافر معنا نحن أبناءها في كل المطارات و في كل الحقائب و كل جوازات السفر، كنت كمن يفكر في أنثى وهو يعاشر إمرأة أخرى، فكيف أسمح لنفسي أن أفكر في الشام وأنا أهبط في بلد آخر!!

إجراءات السفر في كل الأماكن تتشابه مع بعضها، وفي أغلب المطارات العربية هناك سؤال لا بد من تكراره، أين ستقيم و من ستزور وما سبب قدومك إلى البلاد؟

أسئلة غبية يتم طرحها بالمجمل على كل من أتى من الطرف الآخر، لا لشيء فقط ليثبتوا لك أنهم حريصون كل الحرص على أمنهم وكأن البلدان العربية مهددة فقط من أبناء العروبة لا أكثر، وإلا فما معنى العروبة!!

بعد عدة لحظات قضيتها أمام موظف الجوازات وبعد تأملاته الغريبة لسوري قادم من بعيد، أضاف سؤالاً لم أتوقعه إطلاقاً، هل ستزور أحداً من النازحين في مخيمات اللجوء السورية؟

بعض الأوطان تسكننا ولاتغادرنا، ونسكنها ولا نغادرها، بعض الأوطان دخولها كخروجها كالبقاء فيها دون جواز سفر.. بعض الأوطان تقتلنا ونقتلها دون آلة حادة يا قوم.. بعض الأوطان تورثنا القلق.. فهل جرّب أحدكم يوماً طعم القلق على الأوطان!!

بعض الأسئلة لايمكن الإجابة عليها و بعضها الآخر يحمل عدة احتمالات، فماذا لو قلت له نعم سأزورها، و ماذا لو قلت له لن أزورها، ماذا لو قلت له أني طيلة ثمان وعشرين عاماً من عمري وأنا أشعر بإهانة شخصية، إهانة في الصميم عندما كنت أمشي في حواري حماه وأرى جدراناً ما زالت تتزين بآثار الرصاص الحيّ، إهانة شخصية عندما كنا في الصف الأول الإبتدائي وسأل المدرس طالباً كان معنا اسمه محمد عن اسم والده فقال الطالب: إسمي محمد واسم والدي محمد فصرخ المدرس: ألم يبق في العالم

أسماء حتى يسميك والدك على اسمه فقال زميلنا: لم أعرف والدي يوماً فقد حملت اسمه بعد رحيله في الأحداث.

هو القادم من غير ذاكرتي وغير مشاعري ومن ظل غير ظلي في الزمان، و أنا الذي ما زلت أشبه نفسي حين أغرق في زحمة الطوابير، هو الحامل سلطة تملك أن تقول لي لا مكان لك ولا طريق لك ولا تصريح دخول لك كي تزور أبناء شعبك ووطنك من (النازحين) فأي نزوح هذا العجيب الذي يرحل فيه الإنسان من غرفة في بيته الكبير إلى غرفة أخرى..

دائماً يكون لنا الجرم الأكبر في تشويه أنفسنا وتشويه قضايانا، فنحن من توافقنا على تسمية الضفة الغربية بالضفة الغربية ونحن من اتفقنا على تسمية جيش المهدي و-حزب الله مقاومة، ونحن من إلتزمنا بتسمية حائط البراق بالحائط الغربي للمسجد الأقصى، ونحن من أسمينا بلادنا سوريا الأسد..

أبناء القحبة أنتم أيها الصامتون طيلة عقود من الزمن، فهل أقول له وهو الممسك بجواز سفري: سحقاً لجيل رضي بالخوف ستاراً واقتنع بالعبودية منهجاً وقبل على نفسه أن يدور في فلك السلطان.. ونعماً بذلك الطفل الذي صاح: آني من درعا!!!

هل أروي له ما حدث معي قبل قدومي إليه مع طفل لم يتجاوز سنه السابعة بعد حين دخل على مصعد العمارة التي أسكنها، فتحركت دورتي الدموية تجاهه من ملامحه التي تشبه إلى حد بعيد تلك الشقاوة التي كنت أحملها في طفولتي، يومها حالة من الصمت المفهوم انتابنا، والمصعد يقطع المسافة بين الطوابق معلناً رحلته التي قاربت على النهاية ليستقر ويخرج الطفل

سريعاً فقلت له بطريقة الهمس، عاشت سوريا، فصاح وكأنه ينتظر مني أن أحدثه بما يريد ليرد علي: ويسقط بشار الأسد!!

أحياناً تجبرنا الظروف على عدم البوح بشيء والسكوت أو الصمت مجبرين على كل شيء دون أن يحدث أي تغيير وأي فارق في جملة الحياة اطلاقاً، بعض الأجوبة يجب أن تظل حبيسة الأدراج والصدور وترحل مع حامليها أو حابسيها، أحسم أمري وأقول له: لن أزور أحد؟

في الحقيقة كان في جوابي مواربة مقصودة، فقلت له لن أزور أحد، ورميت إلى أني سأزور كل أحد و لن أترك أحداً إلا و سأزوره لو ملكت من الوقت بعضه..

أضع جواز سفري في جيبي وأمضي من أمامه فوراً وأهبط الدرج الكهربائي الجانبي ولاشيء معي إلا حقيبتي الصغيرة التي أرميها على كتفي كيفما شاء لها القدر أن تأتي.. وقد كنت أردد في خلدي.. يطير الحمام.. يحط الحمام!!

كان أول شيء فعلته بعد خروجي من المطار أن أخذت سيارة أجرة واتجهت فوراً إلى بيت زياد حيث فاجأته بزيارة غير متوقعة في صومعته في جبيهة، هناك حيث يعتزل الناس ويلتقي من روحه ليحدثها وتحدثه ولم أتوقع أن يقول لي: لقد توقعت قدومك منذ زمن طويل فما الذي أخرك يا صديقي؟!!

اتصلت برفقة وطمأنتها على وصولي و لقائي بزياد..

زياد رجل قارب الخمسين من العمر أو أكثر بقليل، يكره المتسلقين، عاش حياته غريباً في بلده دون إرادة منه، يهرب من أجهزة الأمن ومن اليهود دون أي سبب فقط لأنه قادم إلى وطنه ولا رغبة منهم في وجوده هنا وهو الذي قضى جزءاً من عمره في السجون العربية هناك، كان يقول لي دوماً عندما نتحدث عن بغداد التي درس فيها وقُدّرَ لي أن أزورها بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاماً، إن بغداد عاصمة العواصم وحاضرة الحواضر وبلدة البلدان، هي أنثى يتم اغتصابها كل ليلة ألف مرة وتعود بكراً في الصباح!! عندها إصرار الحياة بلا تفكير بالموت إطلاقاً..

كان بيني وبينه ذاكرة مشتركة مرتبكة ممزوجة بتاريخنا العربي ففي كل موقعة كان لنا حضور بإرادة ودون إرادة.

في زيارتي الثانية لعمان كان حاضراً فقلت له سأتزوج في السادس من تشرين، رسم ابتسامة على وجهه فاشتد شاربه المعقود بعناية فائقة فوق شفتيه مستذكراً كيف كان في الشام (كما يحب أن يسميها) يشتم رائحة البارود والياسمين والحرب التي لم تكن.

في حرب تشرين كما يسميها السوريون وأكتوبر كما يسميها المصريون وحرب الغفران كما يسميها اليهود، وهي الحرب التي ذهب بها أحمد الشيخ يوسف إلى إسرائيل كما تسميها جدتي ببساطة! ولا تذكر منها إلا نزولها إلى المغارة الكبيرة وإطفاء الأنوار القليلة وانتظار استقبال الأسير المحرر بعد فترة من الزمن، بعد أن استقبله الناس بالزغاريد والهتافات وبعد أن استمعوا لقصصه الطويلة عن سجون إسرائيل قمت بزيارته برفقة والدي بعد أكثر من

خمسة وثلاثين عاماً في بيته الصغير على كتف حقول لا تنتهي، كانت لدي فكرة برنامج تلفزيوني عن أولئك الذين قبعوا في سجون إسرائيل لنرسم صورة لآولئك الذين ما زالوا يقبعون دون اهتمام حكوماتهم، وكأنهم مواطنون غير مرغوب بهم تحت سماء وطنهم و فوق أرضه.

ذهبت إليه لأهنئه بالسلامة بعد ثلاثة عقود من عودته ولا أدري هل عادت له فرحته الأولى، هل عادت له هيبة الرجل بقداسة الشهيد أمام شاب يبحث عن فرصة لقول ما يريد، وهل كان ينتظرني ثلاثة عقود لأسأله عن سجن عوفر وعسقلان وعن ذلك الضابط الذي كان يحقق معه ويضربه، حاولت جهاداً لنفسي أن أترك ذلك الفارس لينطلق ويمتطي من جديد صهوة جواده ويرتقي المجالس ويتحدث نافضاً غبار ذاكرته عن أشياء لم يروها من قبل!!

الذي فاجأني أنه مازال يشعر بالأسر بعد أكثر من نصف عمر اسرائيل!

بعض الأشخاص أساطير متحركة.. وبعض العائلات قصص لا أحد يستطيع الخوض فيها خوفاً على حياة!

زياد كان يحضّر لإطلاق كتابه الجديد فجلست في صومعته نتحدث حول بعض النصوص الجديدة، دائماً في عمان هناك مساحة برغم كل شيء للأدب والشعر، وكانت أم مصطفى زوجته تتلصص دوماً على حرفين يخرجان من بين الأبجدية بحثاً عن أنثى تخرج من بين شفتيه، ولكن عبثاً كان زياد يقول لها: أنت البداية وأنت الختام يا سيدة نساء أهل الأرض!!

في عتمة الأيام نستخرج ذكرى دوماً فأروي لزياد كيف بعث لي برسالة نصية عبر الهاتف المحمول يخبرني فيها أنه على ضفاف العاصي ويستمع لعنين

الناعورة الأبية، يومها حسدته أو غبطته وشعرت بنشوة عارمة لأنه هناك يرى تاريخي وحضارتي وأماكن عشقي الأزلي فأبوح له عن قبلة خلف شجرة لوز كبيرة وعن ضمة عشق خلف الرذاذ المتطاير من جنبات القصيدة المنهطلة من أعلى الناعورة العثمانية، هناك يأوي السراب وتأوي الحقيقة، هناك يبوح المتألم ويضحك المتعسر، ثمة أماكن لا نعرف قيمتها إلا بمجرد فراقنا لها فتحتفظ هي بذاكرتنا وتترك لنا مشاهد معطوبة لا تكتمل، فيا أيها المارون من هناك على ضفاف النهر أو أيها المطلون على المدينة من الأعالي هل رأيتم أعظم وأنبل وأجمل وأتعس وأشقى منها!!

أذكر أن ناجي مرة سألني لماذا يسمونها بحماة أبي الفداء فرُحتُ أتحدث عن أبي الفداء وكأني من سلالته وأرفض الخروج من عباءته التي ألبسها للمدينة رغم رحيله الأخير.

أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة، الملك العالِم، الأديب الشاعر، السياسي المحنّك، الشجاع المجاهد، الذي استطاع بحنكته وصبره ودرايته وشجاعته، أن ينتزع الفريسة من فم الأسد.

وقد أَضفت على ذلك لزياد أن المدرسة التي أكملت فيها امتحاناتي الثانوية كانت تحمل اسم الملك وقد شاء القدر أن أكتب إجاباتي وأنا أسمع شخير الناعورة وبكائها وعويلها وفرحها وحزنها ورقصها وأشتمّ أبجدية الحروف من إغواءاتها الغامضة، وليمر اسم أبي الفداء فوق كل صفحة، رافضاً الزوال!!

أتساءل لماذا مدننا العربية بالمجمل نختصرها بأسماء ملوكها أوأسيادها الذين رحلوا أو الحاضرين، حماه الفداء وحمص ابن الوليد، معرة النعمان وقاهرة المعز وفسطاط ابن العاص، هل مدننا لا تستحق أن تكون مستقلة بذاتها وكأنها دوماً على عصمة رجل، ولا يجوز لها أن تحضر مفردة دون محرم!!

لكل مدينة رائحتها المميزة التي يختزلها زائرها في جيوبه الأنفية، لايستطيع تشبيهها بشيء عندما يود الحديث لأحد عنها ولا يستطيع وصفها رغم محاولاته المتلعثمة فيكتفي بالقول: رائحة غريبة لا أعلم مثل ماذا ولكنها مميزة ولاتشبه إلا ذاتها، يستحضرها في أنفه و خلاياه ولكنه لا يجدها بين يديه عندما يطلبها فيغمض عينيه لتعود تسبح في قلب المكان الأول.

للحاضر في حماه رائحة تميزه عن السوق، ولسوق المنصور أو سوق الطويل رائحة مختلفة تماماً عن جسر المراكب أو جسر السرايا، لباب قبلي رائحة تتفرد بنوعها عن حي الجراجمة والبولمان والسوق المسقوف.. في كل مدينة هناك روائح تعشعش كما الذاكرة لتكون جزءاً منها دون أن تزول، في خان الزيت في القدس هناك رائحة إذا أصغيت وبرغم كل محاولات العابرين من كل مكان بإخفائها لكنها تفوح معلنة حدادها وبقاءها وإلتزامها الأبدي بعروبة المكان، وقد حدثتني مرة زوجتي رفقة شقور عن سوق البصل في نابلس والخان النابلسي فهناك روائح البهارات والزعتر والسمك والذبائح المتعددة الأسباب لتسيطر بعد ذلك رائحة الياسمين في نهاية السوق رغم كل شيء، فللرائحة لسان لو سألته يجيب!!

في المدن العربية تتشابه الروائح وتتفق الأرصفة مع بعضها بعطور رخيصة الثمن وأوراق أمهات الكتب!!

ولا زلت أذكر رائحة بيت جدتي عائشة رغم كل الأماكن التي مررت بها، ولصومعة زياد رائحة متفردة تشبه تلك النصوص المرتبكة التي تخرج فيها.. فهل الرائحة هوية ومكان؟!

على الطريق الواصل من العبدلي إلى الحدود السورية كانت الهواجس تنتابني وتسيطر علي فمن الممكن أن أصل ومن الممكن ألا أصل وماذا لو دخلت إلى بلادي وتم اعتقالي على نقطة الحدود؟ سائق السيارة البيضاء كان يتحدث عن بعض النقاط المتعددة الأسباب والأهداف وكنت أصغي له، فدائماً أصحاب سيارات الأجرة على معرفة تامة بأدق تفاصيل البلاد، هم تماماً كأولئك الجالسين أمام مقرات المحاكم وكمعقبي المعاملات أمام المالية وشعب التجنيد المختلفة، يوحون لك دوماً أن كل شيء تحت السيطرة وكل ما يحدث هو أمر متوقع الحدوث ومن السهل جداً السيطرة عليه..

برغم أني كاتب ومن المفترض أن أتعامل مع تلك النماذج كأشخاص روائية أعرف مداخلها ومخارجها، ولكن هناك حساً أمنياً كان يرافقني، ربما نشأ من دوافع مجتمعية توحي بأن سائقي التكسي هم من عملاء المخابرات وأجهزة الأمن!!

بين الفينة والأخرى كان سائق التكسي يكيل الشتائم للأمن والنظام وهو يسألني:

- كم لك من الوقت خارج البلاد يا أستاذ؟

هل أقول له كم من الزمن وما الذي دفعني كي أعود إلى بلاد كل من فيها يرغب بالخروج منها في هذا التوقيت تحديداً، بإجابة مختصرة: منذ ثلاثة أيام خرجت إلى عمان لأقضي بعض الأشغال.

ثلاثة أيام كانت كافية لإرغامه على السكوت أو الصمت.

ثمة مواقف لا ينفع فيها أن تتحدث أكثر فلا بد من الولوج فوراً إلى الإجابات المواربة البعيدة كل البعد عن الحقيقة.

كانت أغنية يحيى حوا الأخيرة تضرب في مسامعي رغم غيابه فمازال الصوت يقول في خاطري: يا سوريا لا تبكي..

بوابة الحدود عند الطرف الأردني، الأمور تسير بسرعة، تلاقت عيني مع الضابط الهاشمي، لمحت في عينيه سؤالاً، غضضت طرفي كي لا تفوح رائحة السؤال والإجابة معاً، بعض مئات الأمتار تفصلني عن وطني، بعض الخطوات فقط وأستعيد وطناً سرقوه منا في غيبوبة من الزمن والتاريخ والجغرافية، أخذوه منا عنوة وأمام الجميع ودون أن ترتفع أي علامة استفهام أو أي علامة استنكار.. سرقوه منا..

عدة بوابات منفصلة متجاورة و متلاصقة، نعبر إحداها، أتذكر رحلتي البرية إلى مكة في عام 2006، وعودتي منها حيث قام سائق الباص بجمع مبلغ من المال من كل الركاب لإعطائه للضابط الجالس هناك على مقربة من بوابة العبور، يومها أيقنت أن على كل مخرج ومدخل من وطني هناك من يقف فارضاً الأتاوة طالباً إياها بقوة القانون والسلطة أو كما يسميها الفلسطينيون (خاوة).

في الحدود دوماً ترى ما لا يمكن رؤيته في أي مكان آخر، ترى العصافير تحزم أمتعتها مهاجرة دون أن تكترث للأسلاك الشائكة والراجمات المتواجدة بغير اتفاق، لا أعرف لماذا قبل أن أنزل من سيارة التكسي تذكرت ذلك اليوم الذي عبرت فيها الحدود مشياً على الأقدام إلى العراق قبل حرب عام 2003 بعد أن أيقظت حارس الحدود النائم وجه الصباح لأدفع له 600 ليرة سورية كرسم خروج من بلادي وليمهر جواز سفري بختم الخروج، سألت نفسي مراراً لماذا أيقظته إذا كان متاحاً لي أن أرتفع قليلاً فوق التلة الرملية لأصير في بلاد الرافدين، ربما هي جدلية المواطن الصالح الذي تحدث عنه الكثيرين، ربما احتراماً لتلك الشمس التي صفعتني مراراً ولحبات المطر التي ضربتني ولنور القمر الذي أضاء عتمة روحي، و لقلوب جمعني معها الحب في بلادي التي أُقف على أرضها الآن وأعبر أولى خطواتي بإتجاه مبنى الجوازات الذي يقف على يسار الطريق الواصل إلى داخل الوطن، دائماً طرقات الأوطان معبدة بالمراكز والصور وإلا فماذا تعني سايكس بيكو!!

ينظر الشرطي إلى جواز سفري مراراً ويسألني:

- المهنة: صحفي؟

قلت له باقتضاب: نعم..

دائماً تسألك الأوطان عن مهنتك ولا تسألك ماذا وددت أن تكون لو سنحت لك الفرصة أن تكون، لم يتعلموا أولئك بعد أن يسألوا الأشجار عن مدى الإرتفاع الذي ترغب به أو الأشخاص عن أحلامهم.. فكأن الأحلام

كلمة دخيلة على ثقافتهم وبطبعم يكرهون الثقافات الدخيلة والكلمات التي لاتحمل مرادفات واضحة في معانيها..

يتجهم ثم يفرد وجهه، يعقد حاجبيه ثم يشعل سيجارة وهو يتأمل أوراق جواز سفري المتعددة الأختام والوجهات، يقلبها دون توقف ثم يسألني: منذ متى لم تأت للوطن؟

- منذ آخر مرة سافرت، تقريباً منذ بضع سنوات، ولم تسنح لي فرصة بالعودة، فالعمل كان شاقاً ومتعباً..

حاولت أن أقطع عليه أي محاولة لسؤال جديد، كنت بطبيعتي لا أحب الأسئلة الكثيرة، ولا أنتظر تلك الأسئلة العمياء التي تبحث عن إجابات محددة، وفي أغلب الأحيان تعاملنا أوطاننا كغرباء فتسألنا متى آخر مرة زرتنا فيها، ولا تسألنا لماذا سافرت أول مرة، كان بودي أن أطرح عليه هو بعض الأسئلة ولكني كنت أود الإنتهاء بسرعة مع أنه لم يعطني ذلك فقد أخذ جواز السفر ومضى بعيداً ليأتي رجل كبير بالعمر والحجم فيشيح لي بيده كي أدخل خلف الزجاج الفاصل و بيده الأخرى يحمل جواز سفري.

هناك من ينتظر دوماً في الأوطان ليسألك عن سبب عودتك وليس سبب غيابك الطويل، ليسألك عن أولئك خلف الحدود وليس من حقك أن تسأل عمن هم داخل الحدود، وإلا فماذا تعني سايكس بيكو!!

في الطريق إليه يأتي أمامي عمٌ لي كنت أحمل اسمه دون إرادتي و دون معرفته أن هذا الإسم سيجلب لي المتاعب يوماً، هو يكبرني بأكثر من أربعين عاماً ربما، أول مرة رأيته فيها كانت عام 1991 في منزل أخيه الكبير حيث استقبله

الناس استقبال الفاتحين، الدموع اختلطت بالحمد والتسبيح، كنت أتمنى أن أسأله يوماً عن طعم الحرية بعد الظلم وهو الذي دخل السجن دون أي ترتيب، فقط لأنه أوصل الطاهر أبو حسان إلى مطار دمشق الدولي ليسافر الأخير إلى باريس وليتم اعتقاله بعد عدة سنوات بتهمة الإنتساب للإخوان المسلمين ليقول إنه نام ليلة في دمشق عند عمي ليتم اعتقال الأخير إحدى عشر عاماً على قيد التحقيق!

مفارقة غريبة أن تجلس في أقبية السجون أكثر من عشر سنوات ثم تخرج موقوفاً قيد التحقيق ولسخرية القدر تستطيع استخراج اعتراف منهم بأنك غير محكوم!!

وإلا فماذا يعني الفساد و الظلم في الأنظمة العربية!!

إلتقيته عدة مرات بعد أن كبرت، مازال يحمل احتراماً وتقديراً في قلوب الجميع دون استثناء، لم أسمعه يروي يوماً ما حدث ولكنه حتماً يحمل في قلبه قصة لم ترو بعد، زرته عدة مرات في بيته بركن الدين في دمشق قبل سفري الأخير وفي كل مرة كان يقف السؤال عند مقدمة لساني فأخاف أن أطرحه، و إلا فماذا يعني قانون الطوارئ!!

أمشي وراءه في سرداب طويل ليدخلني إلى غرفة صغيرة جداً فيها كرسيين متقابلين وطاولة صغيرة تكفي لحمل تلك الأوراق المكدسة فوقها بطريقة عبثية، جواز سفري ما زال في يده وهو يقلبه عيوني توقفت عند الصفحة الأولى المكتوب فيها أن دولتي تتمنى من الجميع حمايتي وتقديم العون والمساعدة لي.. وهي أول من يستهدفني!!

يسحبني الصمت إلى تأملات بعيدة فأتذكر ناجي الذي دخل يوماً على غرفتي بعجل واضح وكأنه اكتشف اكتشافاً مذهلاً ليقول لي:

- أتعلم مالفرق بين جواز سفر بلادي و جوازات سفر العالم؟
- لا..
- الصفحة الأولى؟
- كيف؟
- في الجواز الأمريكي هناك إعلان واضح وصريح أن حامل هذا الجواز محمي فوق أي أرض وتحت أي سماء من الولايات المتحدة الأمريكية وهو خاضع فقط للقانون الأمريكي ولاشيء غيره، وفي الجواز البريطاني هناك إعلان بأن جيش المملكة المتحدة على استعداد للفناء حتى آخر جندي دفاعاً عن حامل هذا الجواز، وفي الكندي هناك استعداد مطلق لتحريك أسطول كامل إذا ما تعرض حامل هذا الجواز لأي مكروه في أي مكان، أما جواز بلادي فهناك وعيد و تهديد بغرامة مالية إذا ما فقد حامل الجواز هذه الأوراق الثبوتية!!

في غمرة الرهبة أبتسم، فيسألني الرجل أمامي عما يضحكني، وكأني اقترفت خطيئة يعاقب عليها القانون.. فهل أجيبه أم أصمت، ومن البديهي أن الصمت أنجى وأنجع وأفضل، في الحقيقة لم أتوقع أبداً أن تسير الأمور بهذه الطريقة وأن تكون مراسم استقبال وطني لي في غرفة تحقيق!!

تستفزهم أحياناً الأختام الغريبة الشكل واللون وأوراق المرور الزاهية الملامح وهي تتموضع على صفحات الجواز وكأننا أبناء عاقون حين نسافر لبلدان أخرى.

ينتبه فجأة إلى مكان ولادتي فيسألني عن شخص هناك، أقول له أعرفه، ربما أعرفه ولكني اعتبرته طوق نجاتي الوحيد في تلك اللحظة، يعود ليسألني عن أخباره فأقول:

- عندما أذهب إلى البلد سأسأل عنه وآتيك بأخباره وسأجعله يتصل بك.

لم تكن إجابتي كافية له لينقل جواز سفري من يده إلى كفي و يدعني أمضي، فقرر فتح تحقيق معي حول غربتي و حياتي و مقالاتي التي لم يقرأها يوماً وعن سبب عودتي الحالية للبلد.

كان الحوار معه أشبه بنقاش مع امرأة نكدة وصعبة الطباع، ولكني حاولت عبثاً أن أحتويه دون أن أثير حساسيته الأمنية المفرطة.

لماذا أوطاننا توقفنا على أبوابها وكأننا متهمون حينما نعود، أشياء لايمكن أن نفهمها إلا حين نمر بها فحبنا لأوطاننا تهمة نحاسب عليها تحت سلطة الدولة والقانون.

لا يمكن أن تكون وطنياً إلا على مقاسهم ولا يمكن أن تحمل ولاءك لتراب هذا الوطن دون أن تسأل نفسك عن مفهوم الوطن الذي تؤمن به..

لم يكن أمامه إلا أن يتركني لنصف ساعة ثم يعود ليعطيني جواز السفر بعد أو وضعت توقيعي على تعهد يلزمني بعدم العمل كصحفي طيلة وجودي على أرض الوطن، بمجرد أن خرجت من المبنى نظرت إلى العصافير الواقفة على بعض الأشجار المتجاورة لأسألها: ياترى لماذا سمحوا لي أن أدرس الصحافة إذا كانوا سيمنعوني من ممارستها، وإلا فماذا يعني تقييد الحرية!

بحثت عن أقرب سيارة واتجهت لصاحبها وسألته إن كان متجهاً إلى دمشق فأجاب بالإيجاب، كل الطرق تؤدي إلى دمشق، طرق الهوى والحب والياسمين والحرب والسلام واللغة والأبجدية والدم.. كل الطرق تؤدي إلى هناك فما من قصة عشق أو مؤامرة إلا ومرت من هناك، بعض القرىّ المنتشرة على الطريق، لاشيء يوحي بالخطر، بعض الموت وبعض الحياة، كتلك العادة دوماً، منذ زمن طويل وفي بلادي حالة من اللاموت واللاحياة كما اللاسِلم واللاحرب على حدود الجبهات المفتوحة بين هدنتين ونقطة فك ارتباط تحمل الرقم 101، وكانت دمشق مدينة مفتوحة الجبهات عبر كل العصور، لدمشق قصة قديمة معي كعاشق أغوته أنثى بالإقتراب منها والنوم في مخدعها، سألني النابلسي يوماً عن سر عشقي لها فاخترت الصمت ففي حضرتها كان أبلغ من الكلام.

في الطريق إلى دمشق كان محمود وهو شاب سوري يبلغ من العمر تقريباً ثلاثين عاماً يقود السيارة الصفراء بسيطرة واضحة فالأيام كما قال لي جعلت منه سائقاً ماهراً لا يخاف الطرقات، مؤشر العداد يرتفع فوق المائة والعشرين

فطلبت منه أن يخفض سرعته قليلاً، كنت حقيقة أريد أن أرمي بصري بعيداً وأشبع من هذه البلاد الممزوجة بالدم.

أمر على القرى والمدن المنتشرة هنا وهناك، فيها شيء مختلف أو صار فيها شيء مختلف، محمود يبادر بالحديث:

- قال بدهم حرية.. حرية اللي تخلع رقبتهم ان شاء الله

لا أعلق على كلامه أبداً فيستفزه صمتي ليسألني:

- شو رأيك إستاز بالأحداث اللي عم تصير..

- أي أحداث؟

- المشاكل وهدول المتظاهرين تبع العرعور والحرية..

- شوف يا حبيبي القصة كتير كبيرة، إنت من وين يا محمود؟

- من الشام..

- مافي عندكم مشاكل؟

- لا أبداً مافي.. القصة كلها هون بدرعا وشوي بحمص وبحماه وبإدلب..بس رح يقضوا عليها أكيد..

- مين رح يقضي على مين؟

- الجيش رح يقضي على المسلحين والعصابات السلفية المندسة و العراعير.. إنت شو بتشتغل إستاز؟

- صحفي وكاتب..

- يعني مثقف وواعي.. طيب شو رأيك بالمؤامرة ولا تقلي ما في مؤامرة.. لأنو رح إزعل منك..

- في مؤامرة يا محمود.. في مؤامرة..

في الحقيقة كنت أريد إنهاء الحديث مع هذا الشاب المسكين بإجابة حاسمة وموارية في نفس الوقت.. هناك مؤامرة كما أراها على الشعب العظيم الذي رفض الظلم بعد عقود من الصمت، الشوارع المكتظة بأشباه البشر كانت تروي لي بصمت عن كل ما حدث فوقها وتستمر عجلات السيارة مسرعة تحث خطاها بإتجاه دمشق، وها هي الشام تفتح ذراعيها لإستقبالي وكأني آخر الفاتحين، في دمشق ينتظم التناقض دون إنكار من أحد فهناك ينغرس الجمال في كل زاوية وفي كل ركن وغرفة، فزواريب الحي تشهد عن قصص عشقي الطويلة والقصيرة والعابرة ولكل عابرة سبيل قصة حفرت في قلبي كما حفر نهر بردى طريقه عبر المدينة خلال مئات السنين، كان عشقي هنا ولم يثقّل أبداً هناك، كما نهر بردى كانت دمشق تكبر وتصغر على إيقاع السنين وفي جيوب الغاصبين.

الحياة في دمشق تختلف عن غيرها من المدن السورية ففيها كنز الأحلام ومنبع اللغة والأيام وفرص الحياة وإلا فماذا تعني العاصمة!!

عبر الطريق الدائري كنت أمر محاذياً لقصة عشقي، على أطراف جسدها كنت أعبر دون أن ألمسها أو أداعب خلاياها، و دون أن أرمي البصر على أماكن الياسمين ففيها كنت أخاف الياسمين فأطلب من سائق السيارة الصفراء عدم التوقف والتوجه مباشرة للكراج.

- العباسيين أو البولمان؟

يسألني محمود فأجيبه بالثانية وأرحل في سؤاله وهو يمر بالعدوي متجهاً إلى هناك، من هنا مر العرب والغرب والفرس والروم والفاتحين.

ألمح في الطريق بعض الحياة وكثير من الموت المحقق الذي يطوف بالعمارات والشوارع باحثاً عن فريسة جديدة، كما فهمت من محمود فإن الحياة تكاد أن تكون طبيعية مائة بالمائة فالكل مشغول بأحوال الحياة وتصاريفها وما إن تغيب الشمس ويسدل الليل حجابه حتى تبدأ الفوضى بالظهور إلى العيان وهذا في بعض المناطق وليس كلها أو في أقل الأماكن وليس أغلبها.

لا أعرف حقيقة كم رقمها هذه المرة التي أزور فيها كراجات البولمان أو أمر منها، بعض الأماكن تأخذ خصوصية أخرى في أوقات الحروب وعدم الإستقرار وفي أوقات الحب يصبح للأماكن وجه آخر لا نرى سواه بالرغم من وجود كل ما لا نراه وقتها، سألت محمود عن المبلغ الذي يريد فكان ثلاثة أضعاف ماكان عليه قبل رحيلي الأخير، في أول خطوة مشيتها فكرت في تجار الحروب من الطبقات الكادحة، هم يتشابهون في كل شيء وربما حتى في أشكالهم، تذكرت بغداد وسيري في شوارعها عندما ركبت في سيارة الأجرة وعندها لم يحتج السائق لكثير من الذكاء ليعرف أني غريب في بلاد الرافدين ولما انتهت رحلتنا طلب أكثر مما يأخذ بخمس أضعاف ولأني لمحت وقتها تحت كرسيه سلاحاً يمد مقدمة رأسه اعلاناً لحرب لم تكن، دفعت ومضيت دون أن ألتفت خلفي، ففي الحروب والثورات كما الحب تماماً يجب ألا نتوقف أبداً عند التفاصيل، فالتفاصيل موجعة و مبكية وتفتح جروحاً كادت أن

تندمل فكل الجراح الباقية عبر الزمان في شروخ الأرض التي تعرضت لإنكسارات زلزالية وإرتفاعات جبلية وإنشقاقات نهرية و تحركات رملية لم تؤثر يوماً على وجه الأصالة الموجود في تركيبها، مع عبوري لتلك البوابة الحديدية الواسعة رأيت جهاز التفتيش الذي تم وضعه قبل سفري الأخير بأشهر وعلى كتفه السهلي هناك من يجلس بتوجس العسكري وحسه الأمني يراقب من يأتي من كل اتجاه حاملاً سلاحه وقلبه معلق بأنثى هناك في مدينته البعيدة عن عاصمة الأمويين، أمر من جانبه و أومئ له بعيني فيشيح نظره بعيداً ويسحب دخاناً كثيفاً من علبة الحمراء الطويلة وكأن لا أحد بجانبه، شاربه مخطوط بتساهيل القدر وسمرة يديه تتماهى تماماً مع سمرة وجهه وكأنه يروي جزءاً من تاريخ هذه البلاد دون أن يشعر، قطع لمحتي العابرة لـ رنين هاتفه المحمول في جيبه العلوي فنهض مباشرة وبدأ يمشي بعد أن قال كلمته الأولى فأعطاني الفرصة لأتأمله بلباسه العسكري الكامل المعتاد، من بسطاله العسكري إلى سيدارته الواقعة في أعلى الرأس دون أي ترتيب، فهل يدرك هذا العسكري أنه يكتب التاريخ أو يشارك على أقل تقدير في صناعته دون أن يدري بوقفته تلك على كتف حاجز التفتيش، ربما كانت أمه على الخط أو أخته أو زوجته أو ربما محبوبته وربما صديقاً يطمئن عليه في ظروفنا غير العادية، لماذا يا ترى أغرق نفسي بعابر أنا بنسبته كأي شخص يعبر هذه البوابة ضمن مئات ليس لهم أي وزن عنده، تذكرت لفوري تلك المرة التي لبست فيها هذا الزي بلون مختلف خلال خدمتي في التدريب الجامعي، شعرت يومها أني أؤدي أحد أهم أدواري ولم أفهم أبداً لماذا رحت أبرر لتلك الفتاة التي جلست

بجانبي في رحلة العودة إلى حماه بأني لست عسكرياً بل أنا طالب جامعي أخضع للتدريب لعلي أقول اليوم أني كنت أحاول أن أظهر أمامها بصورة الطالب المثقف وليس العسكري الذي حكمه القدر بأن يكون في هذا الزي.

تأخذني المسافة بين الواقع والخيال فأتذكر ما رواه جدي لي يوماً عن الجيش العربي في النصف الأول من القرن الماضي حيث كان للعسكري هيبة وللضابط حضور واحترام فما الذي اختلف إذا كان العسكر هم العسكر وما الذي تغير إذا كانت الأهداف ذاتها ما زالت تطرب آذاننا: تحرير فلسطين!

زحمة الوجوه تدفعني للمسير وحقيبتي الصغيرة على كتفي، أتجه فوراً إلى الدرجات المرتفعة، بقيت كما تركتها آخر مرة، لم يتغير ارتفاعها ولم تنقص وما إن أدخل إلى مكتب الحجوزات حتى ألمح عصام وراء مكتبه الذي تركته عليه منذ ست سنوات أو أكثر، فأصرخ له من خلف الزحام بطريقة أثارت كل من هو واقف بيني وبينه لأقول له:

- يا زلمة تركتك هون ورجعت لقيتك هون..!

منظر الصدمة على وجهه يغريه بالإستمرار بالسكوت فيرسم على وجهه ابتسامة تأبى إلا أن يظهر ذلك الناب المكسور من بين شفتيه ليرفع يديه ويخرج بإتجاهي، تعانقنا طويلاً وكأني كنت أسترد فيه زمناً ضاع ولم يعد أبداً..

منذ فترة طويلة استوقفني اسم غريب أضافني على حسابي في الفيسبوك مع رسالة على الخاص تشرح لي بأنه صديق قديم سيترك لي مهمة معرفته دون أن يفصح، صراحة لقد أثارني الفضول لمعرفته فأضفته وتحدثنا فعرفته مباشرة لقد كان أول صديق لي في حياتي، أو بالأحرى أول شخص قلت عنه إنه

صديقي، كان ذلك في أول يوم لي في المدرسة في الصف الأول الإبتدائي، يومها قلت له خبئني خلفك خوفاً من أستاذ كان يقف في صدر الباحة، لم أك جباناً ولكنني رأيت العصا بيد ذلك الأستاذ فشعرت أنه سيضربني بمجرد أن يراني، ومن لحظتها كسبت صديقاً استمر في حياتي إلى اليوم كان اسمه حازم، يعود إلى بالي ذلك المشهد الآن بعد أكثر من خمس وعشرين عاماً، صخب الأطفال يدفعني لتخيلهم واحداً واحداً بهيباتهم المختلفة التي تحولت بعد أن مضى بهم العمر والزمان في مختلف البلدان وفي بلدي، ففي شهر سبتمبر من عام 2001م دعتني أحد الصديقات لأتمشى معها تحت ضوء الشمس في دمشق، وعندما أخذني المسير في الطرقات المتعرجة والمستقيمة على كتف قاسيون وتحت ظلال الياسمين، قالت لي أتعلم أن هناك حياة أخرى لا نعلم عنها شيئاً موجودة بالفعل بالقرب منا، تكاد أن تكون محاذية لنا أو تسير بإيقاع حياتنا دون أن نشعر أبداً بوجودها وأشاحت بيدها إلى بناء مقابل لنا، سألتها عنه فقالت لابد أن تدخل لتراه، كنا نعبر الطريق الفاصل بيننا وبينه وكأنه يفصل بين عالمين مختلفين..

بوابة سوداء وشجرتا سرو تتموضع بجانبه وعريشة عرائلية تتمدد على جسد الباب بأكمله لتظلله كما يظلل الرحم جنيناً يطمع في حياة، وما إن طرقت هي الباب حتى ظهرت لنا إمرأة متوسطة القامة والعمر تربط شالاً خيصاً يستر شعرها وحواجبها منثورة الاتجاهات، تبادلتا قبلتين وسحبتني داخلاً ولم أكن أعي أني سأعبر أولى بوابات الحياة لأرى الحياة كما لم أرها من قبل أبداً، ممر يمتد لعشرة أمتار يأتي بعده باب صغير يفصلنا عن بناء متعدد

الغرف وما إن ولجنا الباب الداخلي حتى ظهرت لنا إمرأة أخرى تلبس نظارة برغم صغر سنها ربما لترى العالم بعيون أوضح من غيرها، فنزعت لفوري نظارتي الشمسية التي كنت أضعها وصوت جلبة من بعض الغرف يخرج ليقتل الصمت وليردد الصدى ضحكات وصرخات وبكاء ورغبة بالحياة، تعارفنا سريعاً وطلبت مضيفتي أن نمضي بجولة سريعة على كل الغرف، أمر مرور الكرام دون أن أفهم، رسومات منوعة وأشجار اصطناعية متفرقة، تقترب مني فتاة تبلغ من العمر ما يقارب خمسة عشر عاماً فتمسك بيدي وتقول لي:

- ها قد أتيت.. ها قد أتيت..

تنهرها السيدة ذات النظارة الطبية وتسحبها المرأة ذات الشال الرخيص بعيداً وهي تعتذر عما بدر لأتابع أنا وكأن شيئاً لم يكن، في صدر البناء ثمة غرفة كبيرة تشبه إلى حد كبير مهاجع العسكر في مخيمات التدريب الثابتة، أطفال يتوزعون أسرة لم تكن لهم أبداً ولكنها صارت لغيرهم ثم كانت لهم دون إرادة منهم أبداً، نساء يتوزعن على أطراف الصالة الكبيرة ينتظرن صرخات أطفال لم يكونوا يوماً هنا، أملجأ أيتام هو؟ أسأل صديقتي، فتقول: لا.. إنه مكان اللقطاء..

يومها صرت أتفهم تماماً تلك الرغبة الغريزية التي تحملها الأنثى في قلبها وصدرها وبطنها ورحمها تجاه الأمومة، عندما لمست ذلك الطفل ذي السبعة أشهر وقد مدّ لي أنامله كمن يستقبل الحياة أو إشعاراً بالحياة لا أكثر، يحاول أن يمسك الحياة بيديه لا يريدها أن تهرب منه، سالت دمعتي يومها عندما علمت

أنه لم يرضع أبداً من حلمة أمه التي أنجبته، أبداً حيث وجدوه مرمياً بين حاوية وشجرة عند الفجر.. لم أسأل عن اسمه أبداً فآخر ما نسأل عنه الأسماء في مثل هذه المواقف، قلت لنفسي أنا مثله أتيت إلى هذه الدنيا بعلاقة غريزية بين ذكر وأنثى ولكن قدري كان أن أعيش في أسرة وقدره أن يولد بين حاوية وشجرة على قارعة الطريق فأي وجع سيحمله في انتظار الحياة..

انتظار الحياة تعبير سمعته مرة من زياد خلال سرده الرهيب لأكثر من عشر سنوات في رام الله هارباً من كل شيء طمعاً ألا يخرج من فلسطين محبوبته الأزلية، و كل شيء هنا ينتظر الحياة أو هي أماكن تحمل في جنباتها ذكرى للحظات من حياة كانت ومازالت مختزلة في جنبات نفوس أصحابها، لم تتغير أبداً برغم كل ما مر عليها فللمكان في هذه البلاد عدة وجوه لا يمكن أن تلمسها كلها دفعة واحدة عليك أن تتلقاها من كل اتجاه بحسب اللحظة التي تعيش فيها ضمن مراحل الحياة، بعد أن تبادلت أخباراً عن حال البلاد ونحن في أيار، روى عصام لي ماسمع من قتل وتعذيب و ضرب وسألني لماذا أتيت وما الذي جاء بي إلى بلاد يتجول فيها ملك الموت بين كل الشوارع والساحات و الأزقة..

لم أجبه على هذا السؤال ولكني أجبته عن سؤاله الآخر عن مشاهداتي منذ دخلت البلاد، فرويت له ما رأيت حين لاحت ملامح الوطن حيث توزعت خيام النازحين من أبناء بلدي وانتشرت سيارات النقل تقلهم من مكان إلى مكان، كانت الرمثا الأردنية خطوتهم الأولى في رحلة النزوح، خيمة وغطاء وبعض الأطعمة والأدوية التي تأتي من هناك ولا شيء يأتي من هنا سوى

الرصاص، ما أتعسك يا عيناي فأول ما أراه من وطني بقايا ديارٍ ليست لساكنيها..

بقي للباص كي يتحرك ما يقارب نصف ساعة من الزمن أو أقل من ذلك فتركت عصام يتابع انشغاله الدائم وخرجت من الباب الخلفي المؤدي للأرصفة المتشابكة حيث تصطف باصات النقل العام، حقيبتي تتدلى برهبة اللحظة الأولى للموقف الأول القديم فهنا على الطرف الآخر وقفت هي منذ أكثر من ثماني سنوات تتزين بأبهى وجه عرفته بلاد الشام ووقف ذلك الشاب الذي كان أنا قبل ثماني سنوات يحمل في قلبه ما تيسر له من حب وعواطف ومشاعر وآمال عريضة، لم يكن لقاءنا الأخير فقد تبعه ثلاثة لقاءات في غير هذا المكان ولكنها أصرت في ذلك الصيف أن تتحرك معي من جامعة دمشق إلى كراجات البولمان لتودعني الطريق المؤدي إلى حماه و لتعود أدراجها وحيدة في زحمة العاصمة.. كأنها أمامي لم تفارقني وكان مشهد وداعنا ذاك من أكثر المشاهد التي اختزنتها في خلايا جسدي، لم تتسع لها ذاكرتي، كانت أكبر من كل ما أملك، وكانت ظروفنا أصعب فقررنا المضي بعيداً عن رغباتنا لأننا لا نستحقها. قالت يومها: كن بخير.. دائماً كن بخير.. إتصل بي حين تصل.. طمني أرجوك فأنا أحبك أيها الساكن داخلي، وكنت أرد عليها: وإني أحبك يا من رضي عني الله إذ أحببتها..

كيف تحضر هي اليوم بهيبتها التي مازلت أحتفظ بها في زحمة الأحداث والوجوه وأنا المسافر إلى اللامكان فكيف لم تستطع غربتي القاسية وعلاقاتي عديدة الأشكال أن تنسيني عشقي الأزلي لها، لم أقرأ يوماً في كتب الطب عن

حمى باسم الحب والعشق ولم أعرف دواءً لحالة الكمد التي تنتاب شاباً في بلاد تحت حكم العسكر منذ أكثر من أربعين عاماً، مازلت أحتفظ برقم بيتها دون تسجيله في أوراق أو حفظه في ذواكري الرقمية ولا زلت أعرف الطريق المؤدية إلى بيتها ولا زلت أذكر كيف أخذت خالد معي ذات مرة من مخيم اليرموك إلى الهامة في أقصى دمشق بعد أن أقنعته بجودة الشاورما التي يقدّمها مطعم الزهراء في الساحة الكبيرة في الهامة، يومها تركته يأكل حصته ومضيت باتجاه الفرن الكبير لأرتقي بعد المخبر الطبي يميناً ولأدخل في ممر يشبه إلى حد بعيد حواري الشام العتيقة لأراها تتسلسل من خلف ستار نافذة تعرفني دائماً، لحظتها كنت أحلم أن أصعد لها، لم يكن يهمني مالذي سيحصل أبداً، هو الحب الذي بسببه عشقت دمشق بعدها ولم أشف منه حتى اليوم.. كانت أمامي وكل العيون تتجه على عاشقين انتحلا صفة المكان والزمان بعد أن وقف الوشاة على الجانبين، كل العيون راقبتنا من بعيد ومن قريب دون أن تقترب أو تمارس فعلها الجنوني في التحرش بالآخرين.. حاولت أن أضمها ولكنها سارعت بالهرب من بين يدي فلم أملك إلا أن أرسلت قبلة لها عبر الأثير فأغمضت عينيها الصغيرتين معلنة قبولها واستقبالها هدية العاشق الفقير، لا أستطيع الجزم الآن هل مازالت العواطف الأولى تسكنها وهل لا زالت مثلي تحفظ عن ظهر قلب مقاس قدمي وخصري وبدلتي الرسمية كما أحفظ أنا كل تفاصيلها تلك؟.

نعم أستطيع أن أقول في هذه اللحظة إني لم أشف منها بعد، لأني تذكرتها بمجرد أن مررت بالمكان وكأن خيولنا ما زالت رابطة هناك عند الباب حيث

تركناها و ترجل حبنا العظيم رغم كل الوعـود بالبقـاء والأبديـة ولكـن عـلى مايبدو في هذه البلاد لا مكان للأبد مهما طال الزمن..

سائق السيارة يتوجه للكرسي المخصص له ويطلب من جميع المتـوجهين إلى حماه الصعود، وكل الذكريات صارت خلفنا، أُكمِلُ سيجارتي التي انحرقـت كما الذكريات أمام عيناي وأحمل تذكرتي وأمشي خطوتين باتجاه باب الحافلة..

البحث عن القاتل..

التصوير: داخلي ليلي

المكان: غرفة نوم الرئيس في القصر الجمهوري

إنها دمشق والليل فيها يشي بأشياء وأشياء والوقت تجاوز المنتصف بساعتين أو أكثر باتجاه انبلاج الصباح، الغرفة كبيرة جداً وسرير النوم يتوسطها وعلى ظهره رجل وامرأة ربما مارسا الجنس منذ قليل، الشموع في كل مكان وبكل الألوان والهيئات، صوت جرس الهاتف الجانبي يزعج اللون الأسود في المكان ليزرع فيه صخباً يرفض الزوال، استمرار الهاتف وإصراره على إيقاظ أحد النائمين يدفع الرجل للتململ في مكانه أكثر من مرة ولكن لا بد له من القيام فلعل في القضية أمراً لا يحتمل التأجيل، وبخطواته القليله كان عازماً على البطش بأي كان على الطرف الآخر..

- ألو.. نعم.. طيب.. أقتلوهم جميعاً..

وألقى السماعة من يده وعاد لسريره وهو يحمل الرغبة في ممارسة الجنس..

بهذا المشهد بدأ وسيم فيلمه السينمائي الذي قرر كتابته بعد انطلاق الثورة في سوريا، لم يكن يدرك أنه ربما قارب الحقيقة كما قال له عروة وهو يشرح لأصدقائه عن حلمه الكبير بإنجاز هذا الفيلم يوماً.. كان شعور النخبة المثقفة هي البحث عن القاتل دون إلقاء التهم جزافاً، وعلى الضفة الأخرى

كان المتظاهرون قد حسموا الأمر وعرفوا خصمهم وقاتلهم، كانوا يراقبون تطورات الأحداث في مصر وتتابعها بعد نجاح ثورة الخامس والعشرين من يناير، وهم يرسمون شكلاً شبيهاً للبلاد وبعضهم اتجه للقول أن الحالة الليبية لابد من تطبيقها بينما وقف قليل منهم يتأملون التجربة التونسية طامحين لتطبيقها، كانوا رومانسيين إلى حد بعيد أما الواقعي منهم فقد عرف أن المسألة ستطول وستكون على الطاولات الدولية.

وسيم وعروة وشربل وجورج من الشباب السوريين الذين خرجوا هرباً إلى عمان واستقروا في وسط البلد واستطاعوا إيجاد عمل بسيط في مطبعة للكتب ولكنهم ظلوا معلقين ببلادهم راغبين بالعودة، كان لقاءً عابراً عندما قام زياد وأنا بزيارة الشاعر جهاد أبو حشيش حيث عرفني عليهم على عجل وتحدثنا حول وضع البلاد وما حصل فيها، كان كأساً من الشاي لم يكن له ثانٍ فالوقت ضيق جداً وقد وعدت جهاد أن أزوره مرة أخرى في طريق عودتي لأسلمه نصي الروائي الجديد..

عروة استوقفني للحديث عن تجربة فريدة قضاها في السجن ونصحني أن تكون موضوع رواية جديدة قد أعمل عليها يوماً، فهو قد جلس في السجن بدمشق ما يقارب سنتين ونصف وذلك عقب عمله في مشروع هندسي للإسكان حيث اختلس المهندس المسؤول مايقارب 500 مليون ليرة و ذهب هو كبش فداء للسجن بينما ظل الآخرون يتمتعون بالنفوذ والنقود خارج أسوار السجن.

في السجن المركزي كما قال لي هناك خيار وفقوس أي بمقدار النقود يكون النفوذ فبإمكانك أن تحيا حياة كاملة لا ينقصها شيء اطلاقاً من خلال نقودك التي تمتلكها فهي التي تحدد درجتك بين المساجين وهي التي تعطيك الصلاحية في النوم على السرير والإستحمام بالماء الساخن وأكل أطايب الطعام، السجن كأي مؤسسة في الدولة قد نخره الفساد من رأسه حتى أخمص قدميه، كان يتذكرهم جميعاً وكأنهم مصطفين أمامه في زنازينهم وهو بينهم حيث راح يروي ما حدث معه:

دخلت السجن لا لأمر كسبته يداي بقدر ما كنت قارب نجاة مر عليه البعض خارجاً بعد محاكمة صورية كان كل شيء فيها مرتباً ومحكماً فالقاضي استطاع من الجلسة الثالثة أن يلقي على مسامعي الحكم غير قابل للمراجعة، تم ترحيلي بعدها من سجن التوقيف إلى السجن النظامي حيث سأقيم هناك وفي اللحظة الأولى لدخولي شعرت أن هناك محكومين معي في نفس الحافلة يتمتعون بحظوة ومعاملة خاصة وكأنهم ليسوا مدانين بجرائم و بقرار المحكمة!

في الحقيقة كنت أستمع له محاولاً تخيل الواقع ولكن تخيل الواقع شيء والكتابة عنه شيء آخر قد ننجح وقد نفشل في تصويره أو نقله بحذافيره كاملة دون أعمال الخيال الأدبي في الكتابة عن الواقعة، برغبتي المؤقتة تلك عبرت حدود السجن لأصير داخل الجدران فرحت أرسم صورة للقاووش رقم 7 بسعته الكبيرة وامتداده الواسع حيث يتوسط الباب الحديدي واجهته بارتفاع يقارب المترين بينما يعتليه شباك بعرض ثلاثين سنتيمتراً على امتداد

الجدران الثلاثة الأخرى، الشمس تغيب وتدخل باتزان واتفاق مع الكون ومع الحارس القبيح، ثلاثون مسجوناً تنوعت تهمهم بين القتل والسرقة والاختلاس والاغتصاب وحوادث المرور، كل له قصة مقنعة ببراءته والكل قابع خلف القضبان متناسياً وجود حياة أخرى خارج هذه الحدود، بينهم وبين العالم خطوة واحدة يقف فيها السجان مانعاً بعضهم أن يخطيها، خلال فترة محكوميتي تلك شاركتهم أفراحهم وأتراحهم وأحزانهم ونجاحاتهم وانكساراتهم، الرجولة هي أول ضحايا هذا المكان، فهنا إما تكون رجلاً أو لا تكون ولا خيار بينهما، مفهوم الولاء للكبير وصاحب السلطة هو ذاته خارج هذه الجدران، فأبو جمعة الجالس في صدر القاووش وله ما له من القوة والسلطة والمميزات وأبو محسن المسؤول عن النظافة في المكان بينما كان ديبو مشغولاً بمراجعة ما يملكه من كميات الشاي والقهوة التي يبيعها كتجارة بين السجناء لصالح أبو جمعة، بالمال من الممكن أن تفعل ما تريد هناك فالسيد نورس المتهم بتهريب الآثار خارج البلاد كان لديه هاتفه المحمول الخاص الذي يضمن تواصله مع الخارج حتى وصل الحال بالسجان للعرض على بعض المحكومين تأمين خلوة شرعية مع زوجاتهم أو غير زوجاتهم مقابل خمسين ألف ليرة سورية!

أتذكر كلماته المخنوقة والأوراق لاتزال معي في حقيبتي الصغيرة النائمة في حضني وعيوني مسمرة على شباك الباص المتنقل على مهل تحت سماء متلبدة بمشاعر الحزن والأسى والموت وعلى طريق مغسولة بالدم والضحايا، مقعدي كان الخامس تقريباً والباص ممتلئ، نساء ورجال و

شباب وصبايا وبعض الأطفال الذين استسلموا للنوم، منذ زمن طويل لم أجلس مع هذا الكم من أبناء بلدي، بهيئاتهم المختلفة يتشابهون، بهمومهم يتشابهون، بأحلامهم يتشابهون، بأشكالهم هم في غالبيتهم يتشابهون، بعض الأحاديث يقطعها قدوم معاون السائق ببعض الماء، تستمر الهمسات بين كل الأطراف، تستوقفني إمرأة تحاول أن تفتح حقيبتها لإخراج مصحف صغير لتتلو ما تيسر لها من القرآن.. دائماً هناك وقت للأديان، في الحرب والسلام والحب والحزن والفرح، ومازلت أسأل نفسي لماذا كان يبدأ بث التليفزيون بالقرآن؟ ولماذا معظم المؤتمرات والتكريمات والجوائز والندوات التي حضرتها في حياتي كانت تبدأ بالقرآن؟ رغم أنّه أكثر ما كان يتباهى به قادة الصف الأول في بلدي هي العلمانية المفرطة!

في المقعد الخلفي مباشرة شابان يتكلمان حول درعا وماحدث فيها وما سمعاه من زملائهم في الجامعة عن حالات القتل والتصفية والإعتقال هناك، يتدخل شاب آخر يجلس في الجهة المقابلة ليقول لهما: لاتوجد ثورة أبداً وليس هناك أفضل من الدكتور بشار الأسد لحكم سوريا، كان النقاش يميل مع الجهة المقابلة وينتاب الصمت الجهة الأخرى. ربما خوفاً و ربما لعدم الرغبة بالدخول في مثل هذا النقاش، مراراً حاولت الإستسلام للنوم بعد أن أيقنت أن هناك شيء ما قد تغير في هذه البلاد، فهناك من يستطيع الحديث على الأقل ليس في صمته ولا ينتظر أن يحاصره الجيش أو يتم إعتقاله ليغيب سنوات طوال في غياهب السجون.. يغلبني النوم فأحلم أني أُقود دبابة وأرفع العلم السوري وورائي نساء يصرخن ويزغردن كما كان

الحال في جرمانيا، فهناك تعيش المرأة حياة المقاتلة في الصفوف الخلفية فهي تشهد مع حبيبها أو زوجها جولات المعارك لتراه كيف يصول ويجول وكيف يضرب الأعداء ويثخنهم جراحاً ليكون اللقاء بعد الإنتصار مفعماً بالعناق والشوق فلا تنتظر هي أن يمر باسمها بين ضربات السيوف أو أن يتخيل جسدها بين رميات المنجنيقات بل تكون بجانبه على مرمى حجر من الموت والنصر.

في الأحلام دوماً هناك مساحة من الأمل و الحرية التي لا يمنحها لنا الواقع إطلاقاً، قد تشعر بالإختناق ولا تختنق و تشعر بالنشوة العارمة وتنتفض مراراً ويسيل الدم من أمامك ومن ورائك ومن خلفك ومن تحتك دون أن تتحرك من مكانك..

يوقظني من النوم صوت مكابح السيارة التي نركبها فألتفت حولي وكأني أنتظر أمراً ما سيحدث وماهي إلا لحظات حتى يصعد للباص شاب يلبس اللباس الرسمي العسكري وعلى كتفه علم البلاد وبيده سلاحه الرشاش ليسأل السائق:

- من وين جاي يا حبيب؟
- من الشام يا معلم..

يلتفت للراكبين في الباص و يقول:

- هويّاتكم يا شباب..

تبدأ هناك حركة متواترة من الجميع للبحث عن بطاقاتهم الشخصية أما أنا فعلى الفور إستللت جواز سفري و ناولته إياه، فقال لي:

- كأنك ما سمعت يا أبو الشباب.. قلنا هويات مو جوازات سفر..
- أنا ما معي هوية..

وكأنه كان ينتظر هذه الكلمة ليبادر بطلب النزول مني فقمت من مكاني وسرقت نظرة لكل الكراسي المتتابعة مع بعضها، أشكال أشباح بحضرة السلاح، لماذا يغدو السلاح سيداً عندما يحضر؟ في عيون القوم إنتظار الموت كي يحضر، و بخطواتي المتثاقلة نحو الباب تسارع يتقاطع مع نظرات الشفقة واللهفة في عيون الآخرين..

ينتهي التفتيش السريع للباص وأنا قد صرت على الأرض، أقف على كتف الباص لأنتظر أمراً قد يحدث، هل غلبني النوم طويلاً كي أصل إلى هنا، أتجه برأسي يميناً فأرى دبابة مشدودة الذراع متأهبة السلاسل وعلى هرمها خوذة تلبس عسكرياً أمامها سلاح له شريط طويل من الرصاص، لم تكن المرة الأولى التي أرى دبابة فيها فقد رأيتها منذ دخولي للبلاد تسير بالاتجاه المعاكس لمسيري، على الخط الممتد لها هناك برميلان يمتلئان حجارة مزروع فيها مظلتان تتزينان بعلم البلاد وبينهما ساتر من الأكياس الرملية وخلفه أربعة عناصر مدججين بأسلحتهم وبيننا ثلاثة آخرين، بناء خشبي صغير يسميه السوريون (كولبة) يقع على مرمى حجر من الساتر الرملي، العناصر الثلاثة مشغولون بالشارع، الباص يسير مبتعداً وعيون من قابلتهم خلف زجاج الباص ترمقني وكأني ذاهب إلى المجهول، لاشيء يدفعني للحركة سوى صرخات ذلك الجندي الذي أنزلني من الباص، يمسكني من يدي فأقول له: لو سمحت اتركني، بمشي لحالي..

- شو يا أخو الشرمو.. خاف نوسخك إذا جريناك..

حقيقة لا أعرف لماذا هذه العدائية التي يعاملني بها فليس قدري أني ألبس بنطالاً من الجينز وليس قدري أني أحمل فقط حقيبة صغيرة وليس قدري أني مدني وأنه عسكري، ربما هناك ما يزعجه حتى يعاملني هكذا، يدفعني من كتفي أمامه فأمر بجانب الساتر الرملي فأقول للعساكر الجالسين هناك: مرحبا ياشباب ولا أحد يرد علي..

الشمس تسطع على كل المكان وكأنها تعلن سيطرتها عليه دون منازع، هكذا تمر أعمارنا أمامنا دون أن نراها بلمح البصر دون أن يرد أحد علينا، حاولت مراراً أن أستوقف العسكري الذي أنزلني ولكنه لم يفعل كان يصر على دفعي أمامه بإتجاه كولبة خشبية حيث المصير، يدخل قبلي والسلاح مسلّط عليّ من كل جانب بدون تهمة، دائماً هناك من يقف مثلي هكذا في كل الدنيا في ظل حكم العسكر، يدعوني للدخول بإشارة سريعة من يده لأرى طاولة صغيرة على التراب مباشرة وخلفها كرسي قديم تعلوه صورة مكتوب عليها القائد وعلى يمينها يتمدد رجل على سرير حديدي يلبس بقدمه حذاء عسكرياً أسود اللون، فوقفت مقابلاً لحذائه الأسود، لم يتحرك أبداً وكأني لا أساوي أمامه شيئاً، أبداً لم أكن أساوي أمامه شيئاً، فصاح ذلك الجندي الواقف بجانبي:

- هاد هوي سيدي..

إلتفت الرجل برأسه نحوي وقال:

- ليش ما معك هوية؟

- يا سيادة الضابط أنا جاي من برات البلد ومامعي هوية.. هويتي تركتها هون لما سافرت..

- برات البلد؟ من وين جاي يا قواد؟

- من الأردن..

- كنت مع الكلاب اللي هربوا وراحوا يعملوا لاجئين وينضموا للمتآمرين على البلد..

- لأ.. أنا كنت بزيارة هناك..

- سيدي: هذا جواز سفرو..

يتحدث العسكري و يعطيه جواز سفري، فيقلّب أوراقه بين أصابعه، دون أن يتحدث بأي كلمة.

ما أكثر المغتربين السوريين، في كل مكان هم لا تحصيهم السجلات والأوراق ولا أختام جوازات السفر. أي تهمة أحمل حتى أقف هنا دون أي مبرر فقط لأني عدت بعد غياب إلى بلاد يسكن الموت فيها ولايغادرها إلا بأمر أحذية العسكر، وإلا فماذا يعني حكم العسكر وسيطرتهم على كل شيء!

بعد صمت طويل يقول للعسكري: فتشوه وخلوه برة. فيمد العسكري يده على كتفي فأقول للمتمدد على السرير: ماذا فعلت حتى تعاملني هكذا؟

ينهرني العسكري و يدفعني من كتفي ونصير خارجاً وجواز سفري ما زال بيد الرجل الأول، يوقفني العسكري وظهري للأراضي الشاسعة ووجهي مقابلاً للشارع العام ومازال العساكر مكانهم وآخرون منشغلين

بالطريق وسياراته.. يضرب ساقي اليمنى بقدمه فتذهب بعيداً ويكز ذراعي بيده الأخرى فأرفعها دون أي تأخير لأقف مصلوباً بدون أخشاب فأسأل خاطري ماذا أعطاني حبك يا وطني غير أخشاب صليبي وكفن نعشي؟ يبدأ التفتيش وأول ما تقع يداه على محفظتي فيسحبها وبعض الأوراق الأخرى في جيب قميصي فيأخذها ويضغط على رأسي وكتفي ليقعدني أرضاً. لأول مرة أقترب من هذه القطعة في أرض وطني، بعض المناطق تستهوينا أحياناً لنقف في سيارتنا المسافرة بعيداً لتطأ أقدامنا هذه الأرض التي لم نتخيل يوماً أن نسير عليها، صرت أفكر في هذه الأرض فمنذ سنوات طوال كنت أعبر هذا الطريق خلال ذهابي للجامعة دون أن أتوقع يوماً أن ألمس هذه الأرض بقدمي، هذه الفلسفة خطرت ببالي في صيف عام 2010 م عندما كنت برفقة وفد ياباني يقوم بزيارة منطقة جلفار على الخليج العربي يومها تركني السائق ومضى لإنجاز بعض حاجياته فما كان مني إلا أن مشيت الهوينى على الطريق الترابي لتلحقني سيارة الوفد فتراني رينييه تلك الصحفية التي كانت تقول لي إني أشبه إلى حد بعيد ال بوي فرند الذي كان يخصها، لتصرخ لي بإنكليزيتها الركيكة وتسألني لماذا أسير هنا؟ فرحت يومها أشرح لها أني لم أتخيل يوماً من الأيام أن أمشي هنا وأن تدوس قدماي على تراب مر عليه البرتغاليون عندما أحرقوا هذه المدينة واستباحه الإنكليز عندما أقاموا هنا و عاش عليه الهنود لفترة طويلة من الزمن حتى عاد إلى سطوة العرب.. ربما حقيقة لم تكن تفهم معظم كلماتي و لكنها كانت تهز رأسها بالإيجاب

باستمرار، فدائماً ما يصدر من القلب يقع في القلب فوراً وما يصدر من اللسان لا يتعدّ الأذان إطلاقاً في كل لغات أهل الأرض.

يقطع تأملاتي صوت عسكري من الثلاثة الجالسين خلف الساتر الرملي ليقول لي:

- من وين يا حبيب؟
- من حماه..
- شو القصة؟ ليش قعدوك هون؟
- مابعرف.. ما معي هوية!

أي حماقة ارتكبتها لأني لم أحمل بطاقتي الشخصية، سكت العسكري و صمتّ أنا لأعود للنظر في هذا التراب فأي قداسة حملها و أي تاريخ يحمل اليوم وأي تاريخ سيرويه فيما لو طلب منه أن يتحدث يوماً!!

كان خلف الكولبة ثلاثة قبلي وأنا رابعهم على الأرض، ثيابهم معفرة وهيئاتهم مختلطة ولسانهم ينطق بلهجة أقرب للحمصية كما استطعت تمييزها من بعض الهمسات التي كانوا يتبادلونها بين بعضهم البعض، لم أكن أراهم ولكن بمجرد أن نزلت إلى الأرض استطعت رؤيتهم، هل سيتم تصفيتنا جميعاً؟ هل سيقتلونا؟ هل سيأخذونا إلى الأقبية والأماكن المظلمة؟ هل سيجلسونا على بساط الريح وسيضعونا في الدولاب؟ كثيرة هي الأسئلة دون إجابة، وحدها الأسئلة تعرف طريقها دائماً في اللحظات الصعبة ووحدها الإجابات متعددة الأوجه والإتجاهات تظهر حينها لتجعل حول السؤال قداسة من نوع آخر وهالة ترفعه إلى ما يقارب السماء.

في المقاهي كنت أجلس دوماً برفقة ناجي والنابلسي وجمع من الشباب العرب الذين انتموا إلى الكثير من التنظيمات السياسية، يومها كان الجميع ينتقد ويتذمر ويكاد يبكي وكنت أقول لهم: لقد ولى زمن البكاء على الأطلال لا بد لكم أن تشعلوا شمعة خير لكم من أن تلعنوا الظلام مئات السنين، كانت البوصلة واضحة في تلك الأيام فأن تكون معارضاً أو طويل لسان يعني أن لاتعود إلى بلدك إطلاقاً، وكنت أستغرب من يقول أنه ممنوع من دخول وطنه، لا يوجد هناك من هو ممنوع بل يوجد من يستطيع الدخول ولا يستطيع الخروج من المطار إلا بسيارات ذات أرقام خضراء برفقة إثنين أو ثلاثة أشخاص إلى أماكن يعلمونها جيداً..

كانت طولة اللسان وقتها دارجة جداً خاصة بعد الوعود التي نكصها رئيس البلاد المفدى بعد إغلاق الصالونات الأدبية والسياسية وقد دخلت عليهم يوماً فاغراً فمي قائلاً: أما علمتم بالخبر اليقين؟!.. لقد ألغوا برامج الأطفال من قائمة البث في تلفزيون البلاد..

سألني الجميع لماذا تم الإستغناء عنها؟ هل تم استبدالها مثلاً بأفلام إباحية أم بدروس الدين!

- لقد تم إلغاؤها لأن الرئيس الشاب يضيع كل وقته في متابعتها!

ضحك الجميع..

أرسم على وجهي إبتسامة وأنا أجلس على التراب هنا وكأن لاشيء حولي، لاعسكر، لا أسلحة، لامعتقلين، كل شيء ذاب في الإبتسام وقد قالوا قديماً إن البسمة تحرك أكثر من مائتي عضلة في الوجه فهي كفيلة لإزالة

كل الكآبة التي تعتري الإنسان يوماً فهل تستطيع اليوم أن تخلصني مما أنا فيه..

- بتشتغل صحفي يا عرص!

صاح الضابط المتمدد على السرير الحديدي داخلاً، فأومأت رأسي بالإيجاب..

- رح يوجعلنا راسنا؟

- لا.. لا يا سيدي على كفالتي..

- طيب انت تصرف وأنا خليني برات الموضوع..

بعض الجمل التي تواردت إلى مسمعي من باب الغرفة بين العسكري والضابط ثمة أمر ما يدار هناك.

سيارة الزيل الكبيرة تمشي بنا بسرعتها الإعتيادية و خلفها مجموعة من سيارات البيجو، أفتح عيني على الملأ، يداي أصابهما الخدر، وقدماي تحجرتا، ثيابي مهترئة ولم تكن كذلك اطلاقاً، لقد اقتربت الشمس على الغياب، السيارة تسابق الزمن وتأكل الشارع الطويل، إلى جانبي توزع آخرون بهيئات اللحى وأجرودين، بعضهم رمقني بنظرات الشفقة وآخرون أبعدوا عيونهم عني، هناك شيء ما على رأسي أشعر به بعض الدماء المتخثرة اليابسة ارتسمت على رقبتي أستطيع تحسسها وتخيُّلها بطرف عيني، إثنان من العساكر يجلسان على طرف الباب الخلفي للزيل وبيد كل منهما سلاحاً رشاشاً وعلى رأسه خوذة حديدة وبفم كل منهما سيجارة. يخرج دخانها معلناً سيطرته على الأرض والهواء.

أنقل الطرف بين حواف السيارة فأراهم شباباً بعمر الورد، بأمر العسكر لا يمكن أن أتحدث معهم أبداً.. أسرق لحظة من الزمن المتسارع وأسأل من بجانبي:

- عسكريون أم مدنيون أنتم؟

نظر إلي وأبعد عينيه مباشرة لكي لا يراه الجندي المتربص بنا عن قرب.. تمضي عقارب الساعة أكثر، يتغير موضع الشمس عند الغياب ترتمي في حضن السماء، يكسوها الغسق و كأن الليل جاء ليستر جرائمهم.. قبل الغياب ألمح على كتف الطريق عبارة مكتوبة على لافتة زرقاء تكاد تلاصق الأرض.. حمص ترحب بكم!

هي حمص و أقدم أسمائها المعروفة إيميسا بينما يدعوها السوريون في كل مكان على الأرض حمص العدية أو حمص ذات الحجارة السود، مدينة ينام التاريخ بين جنباتها إذ نشأت فيها حضارات منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد، دائماً يتندر السوريون بهم و يروون عنهم النكات والأفعال الظريفة وهم يتميزون عن الجميع بضم أول الكلام وتسكين ما قبل آخره بتصريف عجيب ليس له وجود في العربية إطلاقاً وقد تفردوا به دون منازع.

طريق الشام هو الطريق الواصل بين دوار الإدخار ودوار الجوية في آخر حمص من جهة حماه.. ها هي الجامعة على يسار الطريق كما تركتها منذ سنوات طوال وأشجار السرو والكينا ما تزال بين طرفي الطريق، هذا الشارع الواصل إلى كلية التربية بعد أن كان يصل للآداب قبل نقلها من هناك وفي نهايته يمتد شارع العشاق حيث مشيت مئات المرات ذهاباً وإياباً أنتظر

قدومها و عندما كانت تأتي كنت أمشي مقابلاً وجهي لها حتى أراها أكثر ولتبقى قبالتي كما المدينة تماماً، نمشي طويلاً حتى شارع الحضارة، حتى الإطفائية لننحرف يميناً باتجاه الحديقة الواسعة حيث جلسنا ساعات طوال نتحدث عن أحلام ستكون، عن أطفال سيأتون، عن بيت سنبنيه، وعن أسفار سنقوم بها، كانت تمسك يدي و أداعب أنا أصابعها، أراقب الحمرة كيف تذوب فوق شفتها السفلية وكيف تضحك عيناها عندما أهمس وأروي لها بطولات لم تكن يوماً إلا في خيالها وقد رسخها ماحصل ذات مساء ونحن نمشي فأرهقنا التعب فسرقنا الوقت جلوساً على مقعد ليلي كان لغيرنا، أحببتها وهي أحبتني، لكل أنثى أحببتها مكان في القلب لا يمكن انتزاعه أبداً، يوماً ما لمت ناجي على كثرة النساء التي يعرف فقال لي: يا أخي إذا كان القلب يتسع لله بعظمته فهل سيعجز عن احتواء ألف أنثى من صنع الله؟!

نامت على كتفي و رحت أداعب أصابعها وأنا أغني بأذنها مباشرة: يالله تنام يالله تنام لدبحلا طير الحمام.. نامت حقيقة وارتخت يداها، والأنثى لاتنام بين يدي رجل إلا حين تشعر بالأمان ولكن هذا الأمان لم يدم إلا لحظات حيث وقفت أمامنا مباشرة دراجة نارية عليها شابين يحمل أحدهما ملفاً بيده اليسرى، طلب مني هويتي وهويتها، كان يريد أن يأخذنا للفرع على حد تعبيره بتهمة الإساءة للآداب العامة وكأن بلادنا لم يعد فيها مواخير وبيوت دعارة وضاقت الدنيا على عاشقين استسلما للتعب في وطن يحكمه العسكر وقوانين الطوارئ و رجلا أمن على دراجة نارية!

سحبتهم بعيداً عن مسامعها ورجوتهم كي يتركوها ويأخذوني لوشاؤوا ولكنهم أصروا على سحبنا و تفييشنا كما قالوا.. لم أتمالك نفسي فمددت يدي إلى جيبي وأخرجت أربعمائة ليرة سورية وقلت له هذا كل ما بحوزتي خذوه وأتركوها تمضي، أخذوا النقود ووجهوني للجلوس بمكان آخر غير هذا ومضوا بعيداً والآداب العامة ظلت بخير!

عدت إليها يومها و علامات النصر ارتسمت على محياي تماماً كما لو أني دخلت مع جيش محمد الفاتح إلى القسطنطينية و أنا أردد أمامها ووجهي مقابلاً لها: نحن الثورة والغضب!!

يقف الخامس عن يساري في الجهة المقابلة في الزيل ويبصق كل ما في فمه وليصرخ فوراً: أيها المجرم.. أيها القاتل.. أيها..

كانت الرصاصة أسرع من كلمته الأخيرة..

صار الرجل بين أقدامنا ينتفض تصارع روحه الحياة في رحلتها الأخيرة وكأن شيئاً لم يكن، وقعت عيناي بعينيه مباشرة، كان الموت يسكن فيهما، و سبابته اليمنى تعلن مهمتها الأخيرة تجاه السماء مشرعة رغم السلاح.. وقتها كنا مباشرة أمام دوار الرئيس وعلى يميننا جامع الصفا..

للموت هيبة وحضور ودائماً ليس له مراسم أو طقوس، هو فجأة كما الحب كما الحياة كما الولادة كما عنصر المخابرات في بلادي، دم الرجل بين أحذيتنا ولا نستطيع حراكاً كلهم صمتوا بما فيهم أنا أمام قوة السلاح وهيبة الموت.. كان الموت قريباً جداً، قريباً حد الموت..

- عم تبصق على الرئيس يا أخو الشرموطة.. كس أختك عرص.. يامنيك.. هذا اللي عمل للبلد كرامة..

وتابع كلامه برصاص في الهواء اعلاناً لانتصاره وقلت له في سري.. اطلق رصاصك لا ترحم فعدوك وقف أمامك أعزلاً ولا سلاح معه إلا صوته وهاقد أسكته أيها المجرم، الرجل أسلم الروح تماماً وتحول من جسم يرتعش إلى جسد لا يتحرك..

- الأسد أو لا أحد.. الأسد أو نحرق البلد.. يا عملاء يا مندسين يا عصابات!

ولم ينطق أحد منا أبداً فقد كانت حياتنا كلها تساوي كلمة أو اعتراضاً..

كنت أفكر بعقلية الروائي فأتخيل زوجته عندما سيأتيها خبر مقتله لأنه بصق، ربما ستزغرد وربما ستقول لو أنه ابتلع لسانه تماماً وأصابته جلطة أسكتته إلى الأبد و لايموت!

أقطع صمتي وهم ينزلونا على باب فرع المخابرات الجوية فأقول للعسكري الذي لم يقتل:

- ياسيدي.. ليش جايبينا لهون؟ أنا شو...؟

لم يتركني أكمل سؤالي فكانت يده الحرة من السلاح تصفعني على مؤخرة رأسي فشعرت لوهلة أني أفقد توازني وتركيزي فعاجلني بضربة من كعب قدمه على ظهري لأنحني تماماً..

- ما بتعرف شو عامل يا زطي... عرصات كلاب..

يدفعونا كالأغنام كلنا.. ولا أحد يقاوم..

كانت المدينة تنام باستثناء الرصاص ومن المؤكد أن كل من في المدينة لا ينام.

باب كبير مكتوب في أعلاه:

أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة.. وفي منتصفها صورة للقائد الخالد والقائد الأمل والقائد القدوة.. أشجار كثيفة ومبنى على يسار الباب بمسافة تتجاوز مائتي متر تماماً أو أكثر، نمشي ونمشي والعساكر يحيطون بنا.. ولا أدري ما أنا فاعل حتى يؤتى بي إلى هنا، فكل ما أتذكره أنهم أجلسوني إلى جانب الكوة الخشبية حيث الضابط المتمدد هناك وقد تناهى إلى مسمعي بعض العبارات بين العسكري والضابط ثم ضربة قاصمة على مؤخرة رأسي جعلتني أغيب تماماً دون وعي لأفيق بعدها في قلب الزيل بين هؤلاء.. أحاول أن أمد يدي لأتفقد جواز سفري، إنه ليس معي، أوراقي، محفظتي، لا شيء معي بتاتاً.

أتذكر الثلاثة الذين كانوا على الطرف الآخر من الكولبة أبحث عنهم، أحاول تذكر ملامحهم، أفشل لا أستطيع، لم يعطوني فرصة التركيز بهم.. لقد ضاعوا وضعت!

هذه المرة الثانية التي أدخل لهذا الفرع خلال حياتي، المرة الأولى كانت قبل سفري بثلاث سنوات، طلبوا مني الحضور عن طريق الرفيق أبو علي كما يحب أن يدعى حيث أبلغني بضرورة مراجعة الفرع عقب أن اكشفوا بعض الأوراق التي تدعوا لعودة الخلافة الإسلامية في الشام ملصقة على أحد

المصاعد الداخلية في الجامعة، ورغم كل تطمينات أبو علي إلا أني يومها استعملت كل معارفي لأخرج من هذا المازق الذي لم يكن لي أي علاقة به، ومنذ دخولي الأخير أعطوني رزمة أوراق و قال لي العنصر:

- نحنا بنعرف كل شي.. أكتب على هالورق كل شي عن حياتك من لما الله خلقك لليوم، كل شي ولا تنقص شي أبداً.. ولاتنسى نحنا بنعرف كل شي!

يومها تركني ساعتين وقد سمح لي بالتدخين بعد أن أعطيته مئتي ليرة، كتبت كل شيء، حاولت أن أتذكر التفاصيل المملة كلها دون إنقاص، ماذا أحب من الأكلات، ماذا أشرب، مَن شريكي بلعبة الورق وما هي طريقتي بلعب التركس والطرنيب وأحياناً البوكر، ماذا أسمع من الموسيقا وأي المطربين أحب، كم مرة أحببت بحياتي وأسماء حبياتي ومقاساتهن التي لازلت أذكرها، قراءاتي و كتبي المفضلة، أفلامي المفضلة وأي السينما أحب، وأسماء المدارس التي درست بها وأسماء المدرسين والفراشين وتفاصيل كثيرة لاقيمة لها مثل كم مرة أستحم بالأسبوع وكم مرة أذهب للحلاق في الشهر؟ أين أقص شعري وأي السيارات أحب ولماذا..

مضت الساعتان يومها وعاد العنصر حيث أجلس فوجدني قد ملأت كل الأوراق تقريباً وقد فاضت المنفضة بأعقاب السجائر، لم يتحدث معي أبداً بل سحب الأوراق ومضى وبقيت وحيداً ما يقارب الساعة ثم عاد قائلاً:

- هاد اللي كاتبو اسمو أكل خرى..جاوبني لشوف..

- اتفضل؟
- وين بتصلي؟
- شو اسم الشيخ؟
- على طول بتصلي عند هاد الشيخ؟
- مع مين بتروح على الجامع؟
- لمين بتحضر دروس دين؟
- بتصوم برمضان؟
- بتحب البنت المحجبة أو السفور؟
- بتشرب عرق وبيرة وجن و وسكي و فودكا و انبيذ؟
- شو بتعمل بالعيد؟
- مين صحابك المقربين؟
- مين بتعرف من ولاد هدول العرصات تبع الأخوان المسلمين العراعير اللي بالسجن واللي ماتوا؟

جاوبته على كل أسئلته دفعة واحدة دون أن اتوقف أبداً ثم أمرني بالتوقيع على ورقة بيضاء ثم بالإنصراف، وقبل أن أوقع سألته ماذا سيكتب فوق توقيعي فقال لي:

- بدي أكتب انك بدك تجوزني أختك.. شو بدي أكتب يا خرى..

حقيقة أتمنى أن يكون ذلك العنصر قد أنهى خدمته وانصرف لأني لا أطيق رؤيته مرة أخرى، الأشجار تتمايل على بعضها البعض معلنة حزنها

على أبنائها فأسأل نفسي: ماذا لو قدِّرَ لهذه الأغصان أن تتكلم؟ فماذا ستقول عن كل من مر تحتها؟

أصوات العسكر تطلب من الجميع الإستعجال بكلمات نابية..

- شو يا كبير ماشي على بيض.. جايتك الدورة يا مرة.. بسرعة حرّك.. حرّك!

كنا نمشي حتى صاروا يستعملون أيديهم وأرجلهم وبعض العصي فأدخلونا دفعة واحدة، ودفعة واحدة صرنا داخل الباب الحديدي الصغير حيث صور القائد انتشرت على كل الجدران، شعارات، شعارات، شعارات، والباحة صغيرة جداً ينحشر فيها ما يقارب سبعين شخصاً أو أكثر من ذلك، الجنود ذهبوا بعد أن أسلمونا لغيرهم، لم أعد أراهم و لن أراهم أبداً بعد ذلك.. حالة من الفوضى تنتاب المكان، صراخ وبكاء وانتحاب.. هيئات رجال يتدافعون يحتمون ببعضهم بعضاً، صوت رصاص ينطلق عند الباب فيصمت الجميع، دائماً السيادة للرصاص، يجلس الجميع دون استثناء، الكل يأخذ وضعية القرفصاء، الرأس محني للأسفل، يحاول كل منا أن يدخل رأسه في صدره، أن يخفي رقبته،أن ينكمش في كليتيه فلايراه الجنود، الروائح تغزو المكان، رائحة الدم والأقدام والغازات و العرق، يقطع الصمت نوبة من السعال تهجم على سبعيني، إنه الربو يعلن حربه في غير وقته، لامناص من السعال، يمرر الجندي عيونه على الجميع بحثاً عن مصدر الصوت، أستطيع رؤية ذلك السبعيني الذي أسميته في سري أبو سعيد ولا أعرف إلى اليوم لماذا اخترت له ذلك الإسم، كان يحشر

نفسه بين رجليه واضعاً يديه على فمه رافضاً إخراج أي صوت، ولكن للأصوات حضورا كما الولادة لابد من خروج الصرخة استفزازاً للألم، ينحشر أبو سعيد بين قدميه ولكن لا مجال أبداً لقد رآه فإقترب منه وسحبه من ياقة كنزته السوداء فطار الرجل بين يديه ليرتمي على عتبة الباب الكبير بين أقدامهم جيئة وذهاباً و يشتد السعال من جهته والصمت الذليل من الجميع، كانت صورة ذلك الرجل في الزيل تتداعى أمام عيناي، الموت الساكن في عينيه أراه هنا في جبهة أبو سعيد، يا الله يصرخ أبو سعيد.. فيرد الجندي: خلي الله ينفعك!

يرفع أبو سعيد سبابته أيضاً وعيونه شاهقة للسماء، حذاء العسكري يسحق السبابة وحذاء آخر يضرب الوجه دون هوادة والرجل قد أسلم الروح..

من أين قد أتى كل هؤلاء؟ أين كانوا؟ ماهي قصصهم؟ كم عدد الذين ماتوا بين أيديهم أو تحت أرجلهم؟ يهبط اثنان من أعلى الدرج يحملان أبا سعيد ويلقيانه خارجاً في السيارة التي أتت بنا إلى جانب القتيل الأول..

لقد وضعوني دون إرادة مني ضمن لعبتهم، منذ هذه اللحظة أنا خارج حروفهم وأبجديتهم، لقد حضرت بمهمة سرية لإنجاز عدة أفلام وثائقية لنفسي وليس لأي قناة أو جهة إعلامية، فإذ بي أجلس بين أبناء شعبي القرفصاء ولم يمض علي أربعة وعشرون ساعة وقد فقدت اثنين من عائلتي الكبيرة في هذا الوطن ومن هم خارج هذا الباب الأسود الصغير أكثر وأكثر.. سأحاول أن أخرج من هنا، لابد لي أن أخرج من هنا فالعالم خارج

هذه الأسوار أغنى وأرحب وأوسع، كانت الأفكار تتقاذفني من جهة إلى أخرى ولكن هل أجازف بالوقوف وأشرح لهم كيف أتيت إلى هنا؟ حتى لو وقفت ماذا سأقول لهم؟ حتماً لن يصدقوني، لن يصدقوا أنهم اعتقلوني فقط لأني لا أحمل هويتي، حالة من الضوضاء في رأسي حتى صرت أشعر بحركة الشوارد داخلاً جيئة وذهاباً، أعزي نفسي ببعض الإيجابية فأقول في سري: لابد أن يزول هذا اللبس، ماهي إلا نصف ساعة ويحل كل شيء، سيعتذروا مني و يتركوني أمضي. صوت جلبة في الخارج تقطع أسراب الطيور الجميلة في دواخلي تتقاطع معها أصوات جنود وصرخات متفرقة، في مكبر الصوت الداخلي هناك من يصيح:

- دخلوهم لتحت..

مع انتهاء كلمتي الصوت القادم من خلف الجدران كانت حركة الأيدي تنتفض وتهجم بشراسة مستعملة بعض الكرابيج والهروات والعصي الكهربائية، نتدافع بين بعضنا، نحتمي ببعضنا، نتلقى الضربات عن بعضنا، نتزاحم والضربات تتالى، كان نصيبي بضع ضربات على ظهري وخاصرتي وأطرافي، على الدرج المؤدي إلى الأسفل توقف الضرب تماماً وانتظم الأشخاص بشكل لا إرادي في طابور طويل على صفين متلاصقين، ممسكين بتلابيب بعضنا وعيوننا نصف مغمضة نهبط درجة درجة، خمسة عشر درجة أو أكثر تليها سبع درجات ثم ثلاثة وأصل إلى الأرض، الجنود في كل مكان منتظمين بكامل عتادهم، أرفع عيناي قليلاً لأرى المكان، غرف متوزعة عى الجانبين، غرف كثيرة جداً لا تنتهي، الجدران رطبة تماماً، في الحد الفاصل

بين نهاية أبواب الغرف الحديدية والسقف ثمة أنبوب كبير مرتبط ببعضه والحائط ببضع حلقات حديدية تهرب منه نقاط ماء سوداء كل عشر سنتيمترات، الممر الطويل الضيق الفاصل بين الغرف فارغ تماماً إلا من العسكر، رائحة الرطوبة تكاد تخنقني، أنفاس البشر تكاد تقتلني، محصورون محشورون متلاصقون منتظرون ما قد يحدث، كان الطابور مستمر على الدرج العلوي الذي بات خلفي تماماً، في هذه اللحظة تقريباً يهبط رجل يلبس بدلة عسكرية، حنطي البشرة، أربعيني العمر، شعره مرفوع للأعلى ورائحة العرق تفوح منه لتزيد منظره اشمئزازاً، يمر بين الصفين ويداه تلعبان بالرؤوس ضرباً وقدماه تعالج من تطأه سحقاً و دعساً، مرّ من جانبي و قد كان لي من الحب نصيب، تقدّم الصف تماماً وبدأ عملية الفرز والعساكر متأهبين لتنفيذ الأوامر.. يمسك الشخص الواقف في الطابور من كنزته أو قميصه ويرميه يميناً أو يساراً وما إن يتركه حتى تتقاذفه أيدي العساكر لتضعه حيث أمر القائد الهمام..

- لتحت.. زنزانة..

كلمتان فقط تحدد مصير الشخص، تحت كانت تعني أن هناك درجاً آخراً يفضي إلى الأسفل وإذا كانت الكلمة الأخرى فيعني أن يدخل الشخص ضمن عشرين آخرين إلى قلب الزنزانة الصغيرة.. هي انتقائية لم أفهمها وهو يستمر بالفرز..

في صيف عام 2007 دخلت زوجتي رفقة شقور الأردن أول مرة، وكانت أول مرة تعبر جسر الملك حسين، خرجت من الضفة الغربية للضفة

الشرقية بعد أن عبرت نهر الأردن، وعلى الجسر كان هناك عالم متكامل، حالات ولادة وإجهاض وحياة وموت، علاقات غرامية تنشأ من الإنتظار الطويل، ومشاريع دراسة أو زواج قد تتوقف تبعاً لمزاجية العسكري الإسرائيلي الواقف هناك معلناً سيطرته على مقدرات العباد، كنت أشعل سيجارة وأستمع لها وهي تروي ذلك الحديث الذي يحمل من الإهانة ما لا يحتمله إنسان فكيف استطاع قادة العرب أن يتحملوا الذل لأكثر من ستين عاماً؟ يقترب جميع القادمين في باصات الشاهين من معبر اللمبي في أريحا بعد تفتيشهم وأخذ النقود منهم من الحاجز الفلسطيني بحسب اتفاق أوسلو الشهير، على بوابة المعبر أعلام زرقاء وبيضاء ونجمة داوود تتوسط الخطين معلنة إلغاءها كل المواثيق والعهود مع الأطراف المختلفة، العسكري القادم من خلف البحار ومن كل البلدان لايعرف قيمة هذه الأرض لدى ساكنيها، ليس لديه ذاكرة مشتركة معها، ليس لديه نواميس يرسمها بين حبات ترابها، ليس لديه شجرة كان يبوح لها عن قصص عشقه وحبه الصغيرة، لنا ما لنا وله خوذة ودبابة ورشاش ورصاص والأوامر العرفية ومفاتيح السجون.

المئات يأتون إلى هنا، يعبرون من هنا ومشاغلهم تسبقهم إلى هناك، الأوراق تأتي مع جوازات السفر وتصاريح الخروج والهويات الخضراء، الأمر يعود للعسكري فإما أن يسمح بالمرور أو يجلس الجميع ساعات طوال، إنتقائية يرسخها الإحتلال والخوذة والرشاش واتفاقية أوسلو!

للمعبر قصص لا تنتهي من جهتيه، قد تستطيع أن تبني جسراً هناك من كل شيء، من الأحلام والعواطف والرؤى ولكنك لاتستطيع إطلاقاً أن تخترقه دون إرادة اليهود، في شتاء 2010 زرت عمان والطريق المؤدي إلى العاصمة من مطار الملكة علياء الدولي يمتد كما أحلام آلاف من يعبرون عليه، سألت يومها العم أبو محمود سائق السيارة الصفراء عن الطريق المؤدي إلى فلسطين فقال لي بعد أن سحب نفساً طويلاً من سيجارته:

- من هنا طريق الجسر المؤدي إلى أراضي ال67

من لحظتها أيقنت أن أراضي ال67 و الخط الأخضر ال48 و نقطة فك الإرتباط 101 والأسلاك الشائكة وخطوط سايكس بيكو صارت جزءاً من حياتنا، من تاريخنا، من وجودنا، فهي ثقافة جيل كامل ربما تتغير يوماً وقد قال لي جهاد أبو حشيش قبل قدومي من عمان إلى حدود الوطن:

- ربما سنسمع قريباً عن دعوات لعودة الدبابات السورية إلى خطوط الخامس عشر من آذار!

أين الحدود التي ستعود لها الدبابات وهل أنا جالس في هذه اللحظة ضمن أرض العسكر أم أرض الشعب، في غرفة لا يتجاوز طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار، وقف أكثر من خمسة وعشرين رجلاً كنت أحدهم، حالة من الصمت المتبادل بين الجميع، لكل واحد منّا بلاطة يقف عليها بانتظار المجهول، من كان بجانبي ذهب إلى تحت وأنا هنا ولا أدري أي قدر أرسله إلى تحت وأي قدر جاء بي إلى الزنزانة مع هؤلاء.. يقطع

الصمت شاب يحوقل ويحسبل و يوحّد فيبدأ حديث بالهمس من الجميع بنفس الوقت..

- من وين مسكوكم؟
- وين كنتو قبل ما يعتقلوكم؟
- شو الوضع بمنطقتكم؟
- انت من وين؟
- بتعرف فلان؟
- فلان شو بيقربك؟
- يازلمة شو رح يعملو فينا؟
- اعتقلوا نص البلد؟
- شفتو الزلمة اللي قتلوه برة؟
- يا لطيف.. يالطيف.. حسبي الله ونعم الوكيل..

كانت الأسئلة كلها تدور في فلك واحد هو البحث عن خبر جديد يأتي من الخارج، بينما كنت أفكر في أولئك الذين أخذوهم إلى الدرك الأسفل، ترى هل التاريخ يكرر نفسه بأشخاص آخرين.

كان أغلبهم من حمص والرستن وتلبيسة وعلامات الغضب تعلوهم وتمسح وجوههم حالة من الحنق الغريب وكنت بينهم لا أعرف قصصهم وأحوالهم ولامجال لسؤالهم أبداً، كان جرحي قد تيبّس تماماً فيسألني من هو بجانبي:

- شو ياعمو.. خير ان شاء الله.. ضربوك هالكلاب؟

- بسيطة عم.. صغيرة وناكتة..

أكاد ألمح دمعة هاربة من عينه ليمسح بها جرحي، ربما تذكر أحد أولاده وربما تذكر شبابه عندما شارك في ثورة الإستقلال أو الحراك السياسي الذي تلاها، لاشيء يهم، كل شيء سيكون على ما يرام وسنخرج من هنا، ينهي الحديث بإصراره هذا وكأنه لم ير أننا واقفين ولانملك شيئاً من مقومات الحياة، فكل ما يحكمنا هي مزاجية أبو حيدر.. المساعد الذي هبط من الدرج وبدأ بعملية الفرز.. لم أسمع أحداً يناديه باسمه فإخترعت له اسماً..

العساكر منشغلين بالتحرك ضمن الممر و إطلاق الشتائم على كل اتجاه، وفجأة يأتي أحدهم بأوراق كثيرة ويدخل على الغرفة التي نقف فيها، فيتراجع جميع المحشورين، ينعصرون في الحائط، يدخل برفقته اثنان معهما سلاحاً مسلطاً علينا.. بدأ بقراءة أسماء الموجودين هنا وماهو مطلوب أن يقول السجين:

- حاضر سيدي!

أمرونا باتباع كلمة سيدي بعد أول اسم حين قال الموقوف: حاضر فعالجه العسكري بضربة حذاء جعلته يفقد الوعي قائلاً: قول سيدي يا تافه!

أسماء، أسماء، أسماء.. و أحرف أبجديتي لاتظهر لهم أبداً، من أنا من أكون، ينتهي الرجل من قراءة الأسماء في كل الغرف ويمضي وقبل أن يصعد الدرج الطويل يلتفت خلفاً ويسأل:

- مين ما طلع اسمو؟

- أنا يا سيدي أنا..

أصوات من كل الغرف تخرج دون انتظام، أنا يا سيدي أنا، كانوا ستة أشخاص أو أكثر وقد كنت بينهم فأخرجونا دون انتظام لنقف في الممر الطويل، أجلسنا العسكري القرفصاء على الأرض، يسأل عن أسمائنا وأماكن اعتقالنا و قد كنت الأخير بينهم..

- من باب السباع..
- من باب الدريب..
- من بابا عمرو..
- من طريق الشام..
- من الرستن..
- من تلبيسة..

كان العسكري يسجل أسماءهم واحداً واحداً بعد أن يتأكد من وجود هوياتهم معه وعندما جاء دوري ردد ورائي..

- الأوتستراد! ياسيدي هذا عم يقول انه اعتقلوه على الأوتستراد..
- جيبو لهون.. رد السيد.

يسحبني من ذراعي و يضعني أمام السيد الواقف هناك:

- إنت شو قصتك ولا؟
- ياسيدي مالي لا قصة ولاشي.. لقد اعتقلوني وأنا قادم من الشام لأنو ما معي هوية..
- اخراس ولا.. ليش مجروح.. كنت عم تقوص على الجيش يا كلب..

- لا يا سيدي.. لا.. والله العظيم ما كنت..

- اخراس..

ويشير للعساكر أن يحضروني للأعلى وكانت هذه أولى الجلسات الطويلة..

***

كثيراً ما تأخذنا الحياة إلى أماكن لا ننتظرها أو لا نبحث عنها أبداً، كنت أحلم أن أكمل دراستي بعد الثانوية وأدخل كلية الطب البشري ومن ثم أتابع اختصاصي في دولة ما، ولكن قدّر الله وماشاء فعل.. هي الحياة كما لا نريدها، لا أحد اختار أن يكون اسمه أو يكون عمره أو يكون مسقط رأسه أو يكون مستقبله، كل الأشياء تأتينا دون إرادة منا وما علينا إلا أن نقبلها كما هي وفيما لو حاولنا التمرد عليها سيكون مصيرنا الفشل المحتوم!

في الطريق إلى تركيا كان أبو محمد يحث الخطى باحثاً عن مصير ينتظره، في القرى والسهول وعلى ذرا الجبال وشط البحر، بين الأشجار والأعشاب، خمسة عشر يوماً استمر في سيره على الأقدام بين الأرياف في إدلب حتى استطاع الوصول إلى الحدود، خمسة عشر يوماً استمر في رحلته الطويلة بينما أخذت منه عملية عبور الحدود ما يقارب أربعة أيام، ففي كل يوم كان يحاول ويفشل، لا يستطيع برغم وجود مرشدين مدربين، وخلال هذه الفترة استطاع الإطلاع على آلية عمل بعض الشباب ممن يسمون أنفسهم بالجيش الحر، كان بينهم عناصر منشقين وصف ضباط ورقباء ومتطوعين

وأكثرهم لم يحمل سلاحاً يوماً، خيام وحلقات من أكياس الرمال عليها مدافع رشاشة وبعض السيارات القديمة والدراجات النارية المتنوعة، أشخاص بأعمار متفاوتة يقيمون هناك في ذلك المخيم الصغير في سهل إدلب الممتد إلى بلاد الأتراك، لقد دخل الجيش أكثر من مرة للقرى التي كنا فيها، مرة اختبأنا تحت أكوام الحطب (الجرزون) و دخل العسكر مدججين بالسلاح يترأسهم ضابط يأمرهم بالبحث عن مطلوبين، أجزم أن عسكرياً منهم قد رآنا، نعم أجزم ذلك لأنه أشار لنا بكف يده وعيناه مسلطتان على ذلك الضابط كي لايراه، كان يطلب منا الهدوء والإطمئنان، أسمراً كان هو، ملامح الفرات في عينيه، كانت حادثة مريعة حين دخلوا ونحن هناك، ومن بعد ذلك الموقف تكلّف شباب الجيش الحر بنقلنا من مكان إلى آخر تحت حمايتهم ووصايتهم.

كان أبو محمد وأنا والنقيب عمار الذي أعلن انشقاقه عن الجيش، مررنا بظروف صعبة جداً وكدنا نموت أكثر من مرة، جميل هو الإحساس بالموت، أن تشعر نفسك مستعداً دوماً لاستقبال نهايتك المحتومة، لقد حدثني عنك مرة أبو محمد، قال لي أشياء كثيرة ولكني لم أتوقع يوماً أن أراك هنا!

و حين هممت أن أقول له: ولا أنا توقعت أن أرى نفسي هنا! دخل الرقيب أبو حسان وطلب اسمي فخرجت ومن يومها لم أره أبداً مرة أخرى..

لأول مرة أنزوي إلى مجتمع ذكوري بالكامل ولا يكون هناك حضور للمرأة إطلاقاً، كانت لدي قناعة مطلقة فيما مضى أن المرأة هي الملاذ الوحيد للرجل في كل أوقاته كما القهوة تماماً، عندما يكون الرجل في قمة زهوته وفرحه فهو يطمح لأنثى تشاركه متعته وعندما يخوض انكساراته المتتالية يبحث عن أنثى تأخذ بيده ليبكي على صدرها، وعندما يكتب فهو بحاجة لملهمة توحي له بأفكار لم تولد بعد من رحمها المتصدع، وعندما يعود من الحرب فأول ما يبحث عنه هي الأنثى لتزغرد له و تطنب آذانه بأوصاف المديح والبطولة، كما القهوة هي المرأة في فرح الرجل وحزنه و بطولاته وانكساراته وأتراحه لها وجود ولها حضور، أقف على الباب الخارجي لفرع المخابرات الجوية وحيداً لا شيء معي بعد أن فقدت كل شيء قبل أن آتي إلى هنا، حاولت أن أعد نفسي بأعظم الوعود ولكني تذكرت أن أكبر الوعود قطعتها لزوجتي رفقة حين طلبتها للزواج وقد قلت لها:

- لو مهرك كان مدينة وبالشام العرس، لأركب عالفرس و جبلك مفتاح القدس..

من يومها لم أر أو أعرف أعظم من هذا الوعد الذي قطعته على نفسي، ولكني في هذه اللحظة سأقول لنفسي: يا نفسي سأعدك بحرية لم تكن بعد وأعدك بوطن لم يبن بعد وأعدك ببيت لم يوجد بعد و بطفل لم يولد بعد.. يا نفسي سامحيني، يا جسدي سامحني، يا يدي سامحيني، يا قدماي سامحاني على ما أنزلته بكما من هوان فلم أكن أعرف أن هذا سيحصل.

ألتفت خلفي كل شيء على ماهو عليه، العبارات والصور وكثير من الخراب وسيارة زيل جديدة تعبر البوابة بوجوه مختلفة وراكبين جدد.

أمشي محاذياً للبوابة فيصرخ بوجهي العسكري الواقف هناك، لاتمشي من هنا، أبتعد بفعل لا إرادي خمس خطوات أو أكثر، لو اتجهت يساراً سأذهب خارج حمص ولو أخذتني قدماي يميناً سأدخل حمص مرة أخرى، بين حمص وخارجها أقف مشدوهاً بوجود فرع المخابرات الجوية هناك، كان فاصلاً بين زمنين وبين عالمين وبين كونين.. من هنا الطريق إلى حمص.. من هنا الطريق إلى بابا عمرو.. من هنا الطريق إلى الحرية.

أمسح على رأسي وأمشي فأجتاز الدوار الكبير وأمشي محاذياً للرصيف، بعض الوجوه تتحرك، أتأملهم جميعاً هل يعرفون أين كنت؟ هل يعرفون ماذا فعلوا بي داخل ذلك المبنى؟ هل يعرف أحدهم الرقيب أبو حسان؟ هل يدركون أي مهانة يعيشون؟ أرى كرسياً على الطريق، فأتذكر قصة لي مع هذا الكرسي ففي ربيع 2005 م كنت أمشي برفقتها على هذه الضفة من الطريق فنال منا التعب فوجدنا كرسياً يشبه هذا الكرسي فكتبت على خلفيته حرفان بمفتاح حديدي كان بيدي، الحرفان الأولان من اسمينا يختصران كل الأبجدية ويكتبان تاريخاً كاملاً، اسمها يتكون من ثلاث حروف كما حمص تماماً وتشترك معها بكثير من الصفات ربما أهمها كسر الحرف الأول من إسمها وتسكين باقي الحرفين بإهمال يثير لافظها، بين الحاء والغين مخرج لفظ و بين الميم والياء حرف علة لا ينتهي وبين الصاد والدال نامت حروف الحب كلها، يشدني حرف الحاء هنا فأقول لنفسي لماذا كل كلمات العربية

القريبة من خواطر البشر تبدأ بحرف الحاء فمن حب إلى حرية إلى حنان إلى حزن، تقفز شاردة فتقول لي: ياحمار بالحاء أيضاً ما أجلسك هنا، قم أيها العاشق الفاسق المنتهي إلى مدينة يضاجعها زناة الأرض على مرأى الجميع دون خجل.

أمشي في مدينة يحكمها الموت والعسكر ولا شيء معي إلا مشاهد الموت والتحقيق التي حملتها من داخل فرع المخابرات الجوية، لماذا حصل كل هذا، لماذا أرى كل الموت أمامي فقط وقد أعطاني وسيم رقم أخيه، لقد أوصاني بذلك قبل أن يموت، همس به همساً وكأنه يتلو صلاته الأخيرة خشية أن يروه، في تلك اللحظة التي ذكر الرقم أمامي فيها تمنيت لو تحول عقلي لورقة كي أكتبه بدمي، صرت من لحظتها أجرب تدريب ذاكرتي على حفظ الأرقام متتالية بطريقة عجيبة كي لا أنساه، كان وسيم شاباً في العشرين من عمره وقد اعتقلوه متلبساً يرسل مقاطع الفيديو لأحد الشبكات الأخبارية، جاء في الأسبوع الأخير إلى ذلك المكان البغيض، عذبوه وقتلوه بعد أن رفض أن يزودهم بأسماء من كان معه ومن يسهّل له كل الأمور اللوجيستية، كنت قريباً منه لحظة موته فأعطاني الرقم، لابد أن أتصل بأخيه..

في الحب والحرب والسجن لايمكن أن ننسى التفاصيل، التفاصيل مهمة كما العموميات، فلا ننسى أول قبلة وأول لمسة وأول صفعة وأول جرح، كل التفاصيل تغدو مهمة ولكنها لاتعنيني بشيء فقد طلبوا مني أن أتعاون معهم و أن أكتب تعهداً على خدمة الوطن فمن يجب أن يقدّم التعهد للآخر

مصحوباً بإعتذار؟ يسرقون أعمارنا من أيامنا ويأمرونا بالإعتذار لهم، كنت أفكر في هذه الكلمات وأنا أعزف أرقام هاتفه المتراصة في ذهني دون زوال..

- ألو.. السلام عليكم

- وعليكم السلام..

- كيفك.. أنا من طرف أبو خالد.. عطاني رقمك و حكالي إنو عندك حمام للبيع.. لازم أشوفك..

- أي حمام؟ مين أبو خالد؟

- أبو خالد أخوك يا زلمة.. أخوك الصغير مبارح شفتو وحكالي إحكي معك كرمال الحمام.. أنا بطريق الشام ممكن تمر علي..

- وين بالضبط؟

أعطيه العنوان على عجل وماهي إلا ربع ساعة أو أقل إلا وتوقفت بجانبي دراجة نارية يقودها شاب صغير العمر فأدركت فوراً أن الرجل أرسله لكي يستفهم الأمر، وماهي إلا نصف ساعة أخرى من عمر الزمن إلا و كنت أجلس معه في المقر الإعلامي للثورة، كما كانوا يسمون تلك الغرفة التي ضمتنا..

في حي مكتظ بكل شيء، محلات البقالة والسمانة، محلات القصابين، الحلاقين، الكوميجة، بائعي الخضار والفواكه، يقع ذلك المكان، توقفت الدراجة النارية ونزلت ومضى الشاب إلى أعلى الرصيف ليضع دراجته قائلاً لي: تفضّل..

دخلنا إلى البناية و خرجنا مباشرة من الباب الخلفي فتوقعت أنهم يشكون بي وعليهم التأكد من شخصيتي وماهي إلا لحظات حتى قلت له:

- يا أخي أنا من طرف وسيم المحمد.. كان معي بالمعتقل وماقدرت احكي على التلفون أكثر..

نوبة من الطمأنينة اعتلت عيون الشاب وقال لي تفضل.. قطعنا الشارع مشياً على الأقدام وولجنا بناية أخرى وخرجنا منها إلى الشارع الخلفي، ثم دخلنا بناية ثالثة وفيها كان المستقر، إلى الطابق الرابع صعدنا وما إن فتح الباب حتى عرفته.. يكاد يطابق أخاه، صورة طبق الأصل عنه مع زيادة في الطول.. ضممته دون أن أعرفه وقد عرفته بنفسي وشرحت له عن لقائي بأخيه و دخلنا سريعاً..

غرفة صغيرة فيها أريكة طويلة وكرسيان وكثير من المآخذ الكهربائية وعشرات الحواسب المحمولة وبضع الهواتف المتحركة، حالة من العمل الدؤوب في داخل هذه الغرفة، كل من فيها منشغل بإنجاز مهمته المكلف بها، تحميل مقاطع واتصالات فضائية وإرسال مواد إخبارية متنوعة.

الأجواء خارجاً تميل إلى الهدوء مع بعض رشقات الرصاص المتقطع ولابد للحديث أن يسير باتجاه وسيم، يسألوني عنه و يروون لي بطولاته السابقة التي عرفوها.

وسيم شاب عرفته في السبعة أيام الأخيرة من وجودي في ذلك المكان الكئيب أحضروه على عجل بعد أن قاموا بتمريره على أكثر من مكان، كان

قوي الشكيمة باسلاً في صموده، يأبى الخضوع لهم بل كان يتباهى بقدرته على الرد عليهم كلما حاولوا ضربه وسحله أمام أعين الجميع بصراخه:

- الشعب يريد إسقاط النظام..

كنت أشفق عليه مما لاقى على أيديهم وكنت متوقعاً نهايته بأي لحظة، لقد أعطاني رقم الهاتف وطلب مني الإتصال بكم بعد أن عرف أني صحفي، لم يصدقني أحد إلا هو في ذلك المكان، كنت أروي لهم قصتي بعد أن انهالوا علي بالأسئلة وما إن إنتهيت حتى صاح أحدهم وقد دخل من الخارج قبل قليل.. لقد هاجموا الحي، في تلك اللحظة لم يكن هناك وقت للدموع والذكريات فالموت بات قوسين أو أدنى من كل شيء!

أقف فوراً وأطل من الشباك لأرى قوافلاً من الدبابات البعيدة التي توقفت على مدخل الحي، سرت في بدني قشعريرة غريبة، حالة من الإرتباك سادت المكان وسرعة في حمل ما خف وزنه وارتفعت الحاجة إليه ثم هروب مدروس بطريقة سريعة لنصبح كلنا خارجاً وما هي إلا لحظات حتى تم قصف المكان الذي كنا فيه، الغبار يرتفع ويتطاير، الأشلاء في كل مكان، هناك من مات وهناك من ينازع، نحث الخطى ننقسم مجموعتين ولأني لا أعرف المنطقة جيداً تهت عنهم و دخلت في عدة زواريب حتى غدوت وحيداً، وأصوات الرصاص تتطاير في كل مكان، المكان لا يشبه نفسه منذ قليل ثمة شيء قد تغير، أن تمشي في شوارع لأول مرة وأنت مطارد من كل شيء مع يقينك المطلق أنهم لا يطاردوك لشخصك فقط لأنك موجود هنا بمحض الصدفة المطلقة، فهل أنا موجود هنا بمحض الصدفة المطلقة أم أنه

القدر الذي أتى بي منذ البداية و أن هذه الرحلة مكتوبة لي في اللوح المحفوظ عند رب العرش العظيم، ألعن زمني وألعن حظي العاثر ثم أتذكر والدتي التي نهرتني يوماً عن سب الزمان فأقول في خاطري: يا ودود يا ودود يا ودود..

الأزمة تشتد والوطيس يزداد بين طرفين أحدهما واضح تماماً والآخر لم يبق منه إلا بعض الدمار والمشردين، أرى على الطريق بعض العوائل التي تتراكض بين بعضها البعض، حالة من الفوضى المنظمة التي باتت تعبث بكل شيء والجنود يقتربون والجميع يفر من المكان، إنهم يهربون ولكن سأعرف بعد وقت قصير أنهم يعيشون على حافة الموت في كل لحظة، على حافة محرقة الخوف من الإعاقة أو الإغتصاب أو الإعتقال، أمشي وأمشي وأحث الخطى بالإتجاه ذاته التي تركض إليه بعض البنات في مقتبل العمر إحداهن كانت حاملاً، ألحظها كيف تميل في سرعتها تحاول ألا تتعثر بالحجارة التي انتشرت على وجه الطريق فتفشل مرة وتنجح مرات، أركض تجاهها فأشدها من تحت ابطها..

لاتخافي.. لا تخافي.. الله يسترها..

حاولت أن تتخلص من كفي ولكنها استسلمت بعد أن أيقنت أنه في صالحها، وأصوات المدافع والقنابل والرصاص تسيطر على كل المكان، فأسألها أين كانت ذاهبة؟ فتجيبني والدموع تسكن عينيها: إلى منجرة أبو خالد.. هناك يتجمع الناس.. زوجي مع الجيش الحر وأهلي لا أعرف أين هم، لقد خرجت قبل القصف بقليل لأقف على الباب، شعرت أني بحاجة

للتنفس فبدأ القصف وهربت دون الإلتفات للخلف إطلاقاً، لابـد أن أهـلي هناك في المنجرة!

ننحرف يميناً ونمشي بزقاق طويل فأشتم رائحة الجدران قد اختلطت مع البارود والرصاص والغبار، ثمة شيء قد تغير، تستوقفني لتقول لي من هنا يا أخي، فنمشي بالإتجاه الذي قالت عنه وما هي إلا خطوات حتى نـدخل في محل بلا باب وبعد أمتار ننزل درجاً يفضي إلى الملجأ كما يـسمونه هنـا، أكثـر من مائتي شخص على امتداد البـصر بـين حـائطين وبعـض الأعمـدة التـي استند عليها رجـال كبـيرو الـسن، شـباب وبنـات ونـساء وكبـار وصـغار وأطفال من كل الشرائح العمرية تجمعوا هنا ومـا إن يـراني بعـض الـشباب حتى يركضوا بإتجاهي ليأخذوا المرأة الحامل منـي وليبـدؤوا هجومـاً لاذعـاً علي تنهيه هي بكلمات بسيطة فيهدأ الجميع..

أجلس على آخر الدرج وتسرقني بعـض النظـرات لهـا حيـث ارتمـت في أحضان والدتها التي كانت هناك، أفكر في هـذا المكـان ومايحمـل في طياتـه، أخشاب وبراميل فارغة متوزعة على جانبي الجدار، بعـض البطانيـات التـي فرشتها النساء على أرجلهن، شـباب معطـوبين بـأحلام كبـيرة وتـشوهات أبدية، جروحات لن تزول اطلاقاً، آلام سترافقهم ماظل فيهم رمق للحيـاة، نظرات متتابعة ترمقني وهي تحمل سؤالاً واحداً: من أنت أيها الغريب؟

تأتي على بالي زوجتي التي تركتها خلفي تنتظر عـودتي، لقـد جـرت بيننـا نقاشات عديدة قبل قدومي إلى هنا، لم يمت أنكيدو يا حبيبتي لقد نهض مـن جديد، فلست بحاجة حصان طروادة لدخول بلدي، لن أموت لن أحيـا إلا

كما أريد، أتمنى أن يكون هناك هاتف لأقول لها كم أنا اشتقتها، لم أعد يا زوجتي ذلك الشخص الذي لم يبك يوماً فهنا في هذا الملجأ الحياة بنت عم الموت والأموات أشقاء للأحياء.. فجنازة أي شخص هنا هي جنازتهم جميعاً، من قلب الأرض تظهر صورتها أمامي لتزيل آلام من كانوا هنا وكل الوجع الذي اعتراهم، ألمح في الركن البعيد رجلاً يتلو من القرآن ما تيسر له في صمت الغياب فأمشي باتجاهه وسط كل العيون، أمشي دون إرادة مني ثمة هناك من يحركني، أقترب أكثر لأنحني أمامه وأجلس على ركبتي وأضع رأسي بين يديه على صفحات ذلك القرآن لأشتم أحرفه، لحروف القرآن رائحة لا يميزها إلا من يؤمن بها، أجمل الوثائقيات سيكون هنا، أهم الوثائقيات سيكون من هنا، أراقب اهتزاز العيون ورقصات الرموش الناعسة على إيقاع هبوط القذائف وإرتفاع أصوات الإنفجارات وأصوات التكبير والإستغفار تغزو المكان، لكل منهم قصة سيرويها لو أتيح له وقت من الحياة وإن لم يكن له فرصة سيخترع شخصاً ليروي له كل الأحداث التي مرت من أمامه، استفزني تمسكهم بأرضهم ومكانهم برغم اقتراب الموت كما استفزتني فكرة استنساخ جسد آخر لنبك معه على الأطلال ونتحدث له عن قصص كانت ولم تكن بعد غياب الشمس ورحيل الظعن بلغة الشعر الجاهلي..

صراخ غير متقطع يأتي من الإتجاه المعاكس لي تماماً وكل العيون تحولت نحو مصدره، ثمة أحد يتألم و يصيح، لقد أتى، لقد أتى يا أمي، لقد أتى.. ألتفت لفوري وإذا بالفتاة التي حضرت معي بدأت مخاضها باكراً كما

صاحت أمها، حالة من الفوضى انتابت المكان ومحاولة لسترها من أعين المتلصصين، حاولت الإقتراب منها ولكن خفت أن يثور أحدهم بوجهي فوقفت أنظر إليها خلسة، على امتدادها كان هناك جريح ينزف بين يدي أمه التي كانت القابلة الوحيدة في المكان، ومع اشتداد صرخات التي تلد قامت أم الجريح إلى جانبها وبدأت ترشدها عن آلية الولادة..

- بكرية.. بكرية..
- الله يهون عليها..
- الله يشيل معها..
- الله ينتعها بالعافية.. وتجمعن النسوة حولها والكل يتمتم بما يحفظ..

أمام هذا المشهد المهيب تذكرت أمي التي وضعت أختي الوحيدة ذات آخر ليل وعندها صاحت بي إحداهن أن آخذ أبعد زاوية في البيت كي لا أسمع صراخ المخاض فما كان مني إلا أن بدأت أتلو ليلتها أجزاء من سورة مريم..

((كهيعص.. ذكر رحمة ربك عبده زكريا.. إذ نادى ربه نداء خفياً..))

وبرغم اندماجي التام بتلك الآيات سمعت بكاء طفل يرسم الفرح على هذا المكان الكئيب.. صاح بعضهم، الله أكبر الله أكبر والدموع في عينهم، إنها طفلة وصار الجميع يقترح اسماً لها بينما حملتها امرأة إلى ذلك الرجل الذي كان يقرأ القرآن لكي يؤذن لها.. فاختلست نظرة تقاطعت مع المرأة التي تحولت أماً منذ لحظات فابتسمت في وجهها وكأني أُقدّم لها التهاني بالولادة

فردّتها بابتسامة رغم وجهها المتعرق وحالتها المنهكة، قامت القابلة من جانبها وماهي إلا لحظات حتى علا صوتها وارتفع البكاء، لقد مات ابنها، زغردت نسوة وغرقن في البكاء، ما أجمل وجه المرأة حين تبكي كما قال نزار، لقد مات الولد الجريح وكفى، ما أغرب هذه الدنيا حالة ولادة من جهة وقبض روح من جهة أخرى والأغرب من ذلك كله الحالة التي رأيتها من التصالح مع القدر والإستسلام له بمنتهى الرضا.

القصف يشتد خارجاً وملك الموت منشغل بقبض أرواح أخرى، الموت يخيم على كل شيء، نسمع أصواتاً خارجاً، الأصوات تقترب ليهبط شاب بالعقد الثاني من عمره، يطلب من الجميع الخروج فالطريق آمن كما قال.. تنهض أم الطفلة وتمشي فأراها للمرة الأخيرة.. يخرج الجميع ويبقى المكان.. كنت آخرهم.. الشارع الذي تبعثرت في أرجائه قطع الزجاج والأحجار الكثيرة بات يغص بالناس من كل الأعمار، هناك امرأة تحمل طفليها بين يديها وثالثاً قد تمسك برقبتها واستلقى على ظهر أمه و خلفها رجل عجوز يقوده شاب ليحث الخطى وبينهم أطفال وشابات، القصف توقف للحظات لكنه ما لبث أن عاد بسرعة مع زخات من الرصاص، تفرّق الناس على عجل فقفلت عائداً إلى حيث كنت، و شباب يحملون الشهيد الجريح إلى زواريب أخرى لا يطالها القصف بينما انشغل كل فرد في إنقاذ روحه أولاً، كان الملجأ أو منجرة أبو خالد قريبة بعض الشيء وبكثير من الركض وصلت وهبطت الدرج ولم يكن أحد هناك فجلست أنتظر ما سيحدث وماهي إلا لحظات حتى سمعت أصوات جلبة في الخارج فنهضت لفوري

وقلبت أحد البراميل وجلست فيها بانتظار القدر، دائماً ننتظر القدر ونفر من قدر إلى قدر، فلا شيء إلا بقدر، لحظات وتتضح معالم بعض البنات أعمارهن تتراوح بين الخامس عشرة والعشرين.. يلهثن.. يبكين، أراهن من ثقب البرميل والظلام يخيم عليّ تماماً فلا أصدر صوتاً، قررت ألا أصدر صوتاً كي لا أدب الرعب في قلوبهن فحالتهن لا تحتمل مزيداً من الرعب، كنّ يرجفن من كل خلية في أجسادهن، أسأل نفسي ياترى ما الذي أتى بهنّ إلى هنا وكيف وصلن بعد أن ذهب الجميع، كل واحدة منهن تأخذ زاوية وتجلس تنتظر ما قد يحدث، الكل في هذه المدينة لا يملك إلا أن ينتظر ما قد يحدث، ربما من الخطأ هنا أن أستخدم حرف التقليل بالعربية فما قد يحدث هو حادث بالفعل دون تقليل اطلاقاً..

ربما لكل واحدة منهن حلماً لم يتحقق بعد، و لكل واحدة منهن حبيباً لم يلمس جسدها بعد، ولكل واحدة منهن اسماً لصبي وبنت لم يولدا بعد، ولكل واحدة منهن رغبة بزيارة مكان ما في هذه الأرض، ولكل واحدة فيهن طريقتها في صنع القهوة وترتيب البيت واختيار الستائر وألوان الجدران، ومن المؤكد أن لكل واحدة منهن قصة لم ترو بعد عن هذه الأيام العصيبة التي تمر بها المدينة.

في هذا المكان الذي أجلس فيه بإرادة مني أثار حفيظتي لسؤال قد سألته مرة لأصدقائي مفاده ماهو أصعب موقف قد تتخيل أنه يمر عليك يوماً في حياتك كلها، اختلفت أجوبتهم يومها وبرغم أن إجابتي كانت نابعة من الفوبيا التي كنت أحملها ومازلت أحملها وهي الطيران فقلت لهم إن أصعب

موقف قد يمر علي حين أكون في طائرة ويعلن قائدها أننا في خطر وستتحطم الطائرة بعد دقائق.. يومها وصفوني بالخيالي ولكني لو قدّر لي أن أرى أحدهم فيما يأتي من قادم الأيام سأقول:

- أن تجلس في برميل مثقوب لترى العالم من حولك من هذا الثقب وحولك تقوم الدنيا ولا تقعد وكأنك في عالم آخر وبنفس اللحظة أنت معرض للموت كما كل من معك! في ذلك العالم..

لم أجرّب يوماً أن أتلصص على البنات أو أن أختلس السمع لأحاديثهن، لم يحدث يوماً أن فكرت بهذا الإتجاه، فكيف لي أن أقترف أعظم الخطايا والموت ينام على جدران الملجأ دون خجل من الحياة، كنت أحرص على ألا أصدر أي صوت، حتى تنفسي كدت أخفيه تماماً فصمتهن كان يقتلني، كما صوت الرصاص والقنابل خارجاً كان يقتلنا جميعاً، إحداهن تكسر الصمت فتقول:

- أين ذهب الجميع؟

- خليها على الله.. كل واحد نفذ بريشو..

ترد أخرى..

- يا ربي دخيلك ما إلنا غيرك يا الله..

- بجاه حبيبك محمد.. أنقذنا يا الله..

لماذا يلجأ الإنسان في أحلك ظروفه إلى تلك القوة الخارقة التي يعبدها ويؤمن بوجودها أياً كانت، فمهما اختلفت مشارب الناس وانتماءاتهم الدينية والإثنية هناك دوماً فسحة من الأمل تبثها الأديان وربما تكون كافية لخلق

طاقة من النور تزيح العتمة التي أرخت سدولها كاملة علينا.. الوقت يمر وبعضهن غرق في الدموع تماماً، حقيقة لم أتمالك نفسي فهربت من عيني دمعتان بينما هن وصلن إلى النشيج ليقطع سيل الدموع التي امتزجت بكل شيء صوت جنود من الخارج.. كنت قادراً على تمييز أصواتهم وربما يصبح لدى الإنسان حدس تجاه الأصوات فيعرف شخصية الآخر من خلال نبرة صوته كما الألوان تماماً.. يقترب الصوت وتنكمش الفتيات على الحائط أكثر بينما ألتم على نفسي في المكان الضيق بلا صوت ولا حركة..

يتحدث بعضهم لغة لا أفهمها وبعضهم يتحدث لهجة أعرفها تماماً، يصرخ أحدهم:

- يا سيدي.. في بنات هون!

- بس بنات..

أحاول أن أراهم ولكني لا أستطيع فالثقب لا يساعدني على إظهارهم بشكل كامل فأكتفي بسماع أصواتهم فقط، والبنات ملتصقات بشكل كامل على الحائط، كم تمنيت لو أستطيع أن أفتح لهم باباً للسماء!

- مشان الله يا سيدي.. إحنا ما إلنا علاقة بشي.. مشان الله.. تقول إحداهن وترد أخريات..

لم أر ذلك السيد ولكني سمعت صوته يأمر العساكر بالإنصراف فقال أحدهم له:

- يا سيدي.. خلينا نروق حالنا.. والله كرهنا حالنا من وجوه هالعساكر الأغرار.. وأتبعها بقهقة يشمئز سامعها..

لم يرد الضابط.. والسكوت علامة الرضا، فخرج بعد أن بقي أربعة أشخاص كما رأيتهم لحظتها حيث بدؤوا يقتربون باتجاه الفتيات اللاتي استنجدن بالله كثيراً.. بعض المقاومة التي لاتفيد في حضرة العسكر، وكثير من مقاومة الأنثى لا تكفي في حضرة رجل هائج! أراقب المشهد من مكاني والنار تأكلني فلو أخرجت صوتاً واحداً ستكون نهايتي، حياتي كلها مرتبطة بهذا الصوت، مساوية لهذا الصوت، ما أرخص حياة الإنسان في بعض المواقف، حب الحياة يدفعني للسكوت والصمت الذي سيؤلمني لمدى طويل، ما أصعب أن تشعر نفسك مبتوراً لا تقوى على شيء، بعض المقاومة وكثير من الصمت، و العملية تكتمل، كل البنات أرضاً والذكور فوقهن، أغلبهم اكتفى بإنزال بنطاله دون خلعه بينما بقي كلهم بالباس الميداني الكامل وكأنهم يؤدون مهمة وطنية! أسمع صرخات فض بكارة البنات، واحدة واحدة وسط الترجي والتوسل بكل المقدسات ولكن عبثاً لقد قضي الأمر!

أغمض عيني عن مشهد الإغتصاب وكأني لا أريد أن أراه ولكنه واقع حتى لو أغمضت عيناي فالحياة لايهمها إن فتحت عيناي أو أغمضتها، و العذارى لن يعدن عذارى لو أغمضت عيناي، كنت أشعر كما البنات تماماً، ولا أقوى على شيء إلا السكوت والذل، عشر دقائق، ربع ساعة وينتهي كل شيء، عشر دقائق أو ربع ساعة كانت كافية لقلب حياتهن ليتحولن إلى ضحايا اغتصاب، عيناي تلتصق بالثقب تماماً دون حراك، الآن أستطيع فهم نفسية من يتم اغتصاب شرفه وعرضه أمامه دون أن ينبس ببنت شفة!

ليس هناك قبلات مسروقة وليس هناك عناق محبين وشمة العطر المتدفق من خلف الأذنين، ليس هناك من طقوس إلا بعض الحركات الكافية لفض البكارة لا أكثر.. لا أستطيع إلا أن أقول عنهم إنهم خلقوا من رحم الشيطان ومن عبث الزناة ببعضهم، وجوههم كالكوابيس وضحكهم كالوسواس الخناس، خرجوا من اقبح نار وسيعودون الى أقبحها، أجسامهم ارتعشت في لحظة الإنتشاء وصرخاتهم كتيوس تعاشر النعاج لأول مرة.

مقابل لذة واحدة هناك ألف ألم، هكذا يقول فرنسوَا فيّون، بل هناك ألف ألف ألم، وألف ألف حياة يتم انتهاكها بشكل مدروس مقابل لذة واحدة، أصابعهن كانت تكتب ألف رسالة موت وعيونهن ترسم ألف حالة إحباط و أجسادهن تحكي عن مجزرة لم يسمع بها أحد بعد، لقد قتلوا فيهن كل شيء ولم يبقوا على شيء.. كانت تنبض بالحياة الموقوتة المستعدة للإنفجار بأي لحظة والآن باتت تنحو للموت أكثر.. ينهض الذكور بعد الإنتصار وكأن شيئاً لم يكن، يقول أحدهم لصاحبه :

- عذّبتني.. بس غلبتها..

حاولت أن أصرخ.. أن أبكي.. أن أفجّر نفسي أمام حكايات الموت التي أراها ودموعهن وصرخاتهن التي وصلت حد طلب الموت..

- اقتلونا.. اقتلونا.. اقتلونا.. لا تتركونا..

حضنت إحداهن الأخرى وبينما يحاول الذكور الخروج فتنتفض ثالثة وتحاول ضرب آخرهم على رأسه حيث عاجلها بضربة قتلتها.. فماتت مرتين!

- نحن نتقاسم الأرض مع عزرائيل.. نقرر من يموت ومن يحيا كما نريد..

قال أحدهم هذه الكلمة و خرجوا بينما بقيت أنا أجتر نفسي داخل البرميل بلا صوت، صرت خجلاً من نفسي، صرت خجلاً من جبني، من ذلي و من هواني..

تبقى القتيلة أرضاً بينما يخرج المجرمون وكأن شيئاً لم يحدث اطلاقاً، و القصف ما زال مستمراً خارجاً على ايقاع خطوات الجنود وصرير الدبابات..

نصف ساعة أو أكثر وتجمع ما تبقى من أجسادهن ويخرجن بعد أن قالت إحداهن للأخرى:

- أكتر من القرد الله ما مسخ!

من الثقب رأيت كل شيء، رأيتهن يغادرن متشابكات الأيدي بعد أن توقف القصف، انتظرت عشر دقائق وخرجت من البرميل والهلع قد تملكني فأي قدر أتى بي لأشهد ما كان، أمشي على الأرض وأقترب من الشهيدة القتيلة، أستر صدرها العاري وأغمض عينيها، و أمسح بيدي بعض الدماء عن وجهها، بلحظة قاربت انهياري التام شعرت بأصابع يدها اليمنى تتحرك، لوهلة إعتقدت نفسي أنني أهذي ولكن هذياني لم يستمر إلا للحظات بعد أن وضعت أذني اليسرى على صدرها وسمعت نبضات قلبها تنتفض ببطء وهدوء كما لو أن شيئاً لم يكن، أمسكت برقبتها وصرخت فيها أنت حية.. أنت حية.. أنت حية.. لم ترد عليّ فأعدت التأكد من نبضات

قلبها ووريد يدها، كل شيء على مايرام، كنت قد خضعت في دمشق أثناء دراستي لدورة في الإسعاف فحاولت اجترار المعلومات التي درستها يوماً على مقاعد الأموين، وضعت شفتي على شفتيها، شعرت بطعم الدماء وطعم شفتيها، مرة أخرى جربت محاولة الإنقاذ الأخيرة، لم يتغير شيء، ما زالت جثة هامدة والنبض مستمر، سأحملها أقول في خاطري، سأحاول أن تعيش سأقوم بتنفس اصطناعي مرة أخرى وثالثة ورابعة، أضغط على صدرها عدة ضغطات، لاشيء تغير.. القصف متوقف خارجاً، أصعد الدرجات وعلى حذائي بقايا من دماء البكارة، و على شفتي بضع من دمها ومن شفتيها، أحاول أن أكتشف المكان، لا أحد هناك أبداً، الطرق خاوية على عروشها خلا الأحجار والدمار، أعود لأحملها على كتفي، بطنها يلاصق كتفي الأيمن ورأسها يتدلى على ظهري ويدها تشبك رقبتي، يارب يارب، أصعد الدرجات واحدة واحدة، بهدوء مبالغ فيه، القصف متوقف تماماً، أصير خارجاً فأمشي بمحاذاة الجدار تماماً، أتجه يميناً ثم يساراً في زواريب الحارة بحثاً عن أحد يساعدني في انقاذها، ما رأيته منهم يدفعني لإنقاذها، لا بد أن أنقذها، كنت أستشعر الدماء تحت ثوبها كما هي باقية على شفتي، أمر إلى جانب بيت فأدخل بجانب زقاقه الأيسر فيستوقفني شباب أعتقد أنهم أصغر مني سناً بقليل، يصرخون بي، قف مكانك لا تتحرك، كان القصف متوقفاً تماماً، يسألوني عن هذه الفتاة التي معي فأشرح لهم على عجل ما حدث، يبدو أن بعضهم لم يصدقني..

- أين كنت؟

- في أي مكان تمت عملية الاغتصاب؟
- كم فتاة كانت؟
- ماذا فعلوا بالبنات الأخريات؟
- لماذا قتلوا هذه فقط؟

كثيرة هي الأسئلة التي طرحوها، وأحدٌ لم ينتبه أن الفتاة بحاجة إلى علاج سريع لإنقاذ حياتها، أنت تكذب، لا بد أنك عنصر في الجيش وخطفت هذه الفتاة.. قال أحدهم هذه العبارة، فقلت لهم: إعتبروني ما تشاؤون ولكن الآن لدينا فتاة مصابة بحاجة إلى انقاذ، فهل أرشدتموني إلى طريقة أنقذها بها..

- تعال معي.. اتبعني بسرعة..

مشيت خلف واحد منهم بينما أكمل البقية سيرهم، نمشي ما يقارب مئتي متر ثم ننحرف يميناً لندخل بناية تتألف من ثلاثة طوابق، كان المقر الأرضي لمشفى ميداني يتم خلاله اسعاف من يصاب في القصف والمواجهات، ندخل ورائحة الدم والمعقمات الطبية قد سيطرت على المكان كما الفوضى، لا دواء ولا ماء، لاشيء إلا بعض الإسعافات الأولية لا أكثر، أمسكت بيد الطبيب الموجود و ربما لم يكن طبيباً، قلت له أرجوك لا بد أن ننقذها، نضعها على سرير كان أبيض اللون قبل قدوم مصاب قبلنا بقليل، كثير من الدماء، يفحصها سريعاً، لازالت حية، ولكن تحتاج لبعض الأكسجين ولا نملك إلا أنبوبة واحدة وقد وضعناها على مصاب قد ينجو، فيها ارتجاج دماغي وربما كسر في الجمجمة، لا أستطيع التحديد.

في مثل هذه الظروف قد يعيش الإنسان لحظات تكون بعمر سنوات طويلة، لحظات عاجزة بليدة وقحة ترسم عجز الإنسان وفشله في انقاذ روح من الرحيل، الموت يخيم على المكان بكل مافيه، لن تموت، بل ستموت، كل الإحتمالات قائمة وفي أحسن الأحوال إن استطعنا انقاذها فستعيش معطوبة من كل أحلامها التي كانت.. ساعة أو أكثر وعدد المصابين في ازدياد، يسألون عن دم، أقف لفوري من جانبها حيث ارتخيت، أنا زمرتي +A، أمد يدي فوراً ويبدأ الطبيب بسحب الدم، الدم في الضراء سواء، الدم في علم الأنساب حرام، وفي الشريعة حرام، وفي بيت الله حرام، وفي عرف القبيلة حرام، فكيف لهم أن يطلبوا الثأر من أنثى مغتصبة وبجانبها رجل اختبأ في البرميل ليسمع صراخ فض بكارتها، هل يكفي أن أتبرع بدمي؟ هل يكفي أن أبيع روحي لأنفض الغبار عن جباه الذل؟ هل تسامحني هذه الأنثى التي لا أعرفها؟ خذ أرجوك ما شئت من دمي، علّها تعيش و أعيش..

يدخل شباب آخرون يحملون السلاح، أحدهم يشير عليّ، ينتظرون حتى أفرغ من عملية التبرع ثم يأخذوني لأتركها وأترك الجميع خلفي بعد أن همست في أذن الشاب الطبيب:أرجوك أنقذها، إفعل ما بوسعك..

في عمق اللحظة المنسية في الوهم كانت هي، في عمق الألم كانت تسكن بينما كنت أنا الذي لا أعرفها أسافر في دورتها الدموية أملاً في إنقاذها، برغم كل التوتر الذي ساد المشهد إلا أن هناك طمأنينة تسكنني برفقة هؤلاء فأتحاشى النظر إلى عينيها لأنني لم أستطع حمايتها، أقول في نفسي أنا غريب عن هنا و من حقهم أن يعرفوا من أكون، وما هي إلا لحظات حتى ندخل

في بيت قريب ليتجهوا فوراً للبئر ومنه عبر سرداب طويل نصير خارج الحي كله، كانت رائحة الماء والأحجار في قناة المياه تداعب أنفي وكأنها تعلن ولادة الحياة من جديد، تعيدني هذه الرائحة إلى سنوات طوال حين نزلت مع أخي إلى البئر القديم في بيت جدي لتنظيفه، كانت ذات الرائحة و ثمة روائح تختزن الذكريات والأحداث والمصائر..

رؤية الشمس والأشجار و التراب بلا خراب كان بمثابة الحلم، ولكن هنا لا شيء كالحلم فكل شيء ممكن وكل شيء محال!

مشاهد الاغتصاب والصرخات والتأوه والتألم والبكاء والقتل والدبابات والهجوم والرصاص والعويل والنحيب و الجعبات والبدلات العسكرية والأطفال الراكضين نحو الحياة من الموت والشباب الهاربين للموت من الحياة، كلها تتداعى أمامي وأنا أرتقي السلم الواصل بين قاع البئر وفتحته العالية، لأرى الشمس من جديد بعيداً عن القصف والدمار، كل شيء سيكون على ما يرام، أعتقد أننا مشينا ما يقارب ألفي متر تحت الأرض، المكان واسعٌ جداً، نحن في وسط حقل من الأشجار، يمشون أمامي وخلفي، بعض الذكريات القديمة تأتيني على عجل، دائماً يلجأ الإنسان للذكرى في أصعب أحواله، كل أحبابي وكل معارفي و كل مشاهدي الجميلة التي اختزنتها يوماً، كلها تهب دفعة واحدة دون أي تقطع بها، كشلال متدفق تأتي مرة واحدة وتنسكب مرة واحدة، في هذا الحقل الذي تشبه حبات ترابه ذلك التراب الذي عملت به إلى جانب جدي الذي يكبرني

بأكثر من خمسة وخمسين عاماً وبرغم كل هذا التشابه إلا أنه يغيب فوراً أمام هيبة جدي الذي لم أستطع يوماً أن أقل له كم أنا أحبه!

وها أنا أكتشف حبه الكبير بقلبي أو أكاد ألمسه للمرة الأولى!

يطلب أحدهم من الكل أن يركض فبدأت أعدو مثلهم تماماً، وما هي إلا دقائق حتى ندخل إلى دار لم تكتمل، جدران تقف في وجه الزمن لها نوافذ حديدية تطل على الحقل الواسع، أرضها ترابية مرصوصة بطريقة ممتازة، بعض الأسرّة وثلاجة كبيرة وكثير كثير من الأسلحة المعلّقة على الحيطان الداخلية وهنا صندوق من القنابل اليدوية وبعض صواريخ الستريلا والألغام، أجهزة اتصال متنوعة وبعض الحاجيات الأخرى التي لا تهمني أبداً..

أدخل بينهم ولا أجلس حتى يطلبوا مني ذلك، يمر الوقت ولا أحد يتحدث حتى يأتي كبيرهم كما شعرت فبدأ بالحديث معي:

- وصلنا أنك كنت موجود في المركز الإعلامي قبل دخول الجيش إلى هناك وقصف المكان، ثم تفرقوا وخرجت معهم، فكيف وصلت إلى الفتاة و حملتها، من أنت ومن أين أتيت؟

- ألم يخبروك؟

- جاوبني!

- أنا صحفي دخلت إلى البلاد منذ شهرين تقريباً أو أكثر وقد اعتقلوني على الطريق الدولي وأنا ذاهب إلى حماه، ولم أصحو إلا وأنا في سيارة الزيل ذاهب مع مجموعة من المعتقلين إلى المخابرات الجوية حيث جلست

هناك حتى يومين مضيا، حيث خرجت واتصلت برقم أعطانيه وسيم المحمد قبل خروجي من السجن، وقد فعلت ما قال لي ظناً مني أني سأجد ضالتي لديهم ومن الممكن أن يساعدوني في انجاز ما أريد.

- ثمّ؟

- ثم ماذا؟.. حدث ما تعرف وتم قصف الحي وهرب الجميع بما فيهم أنا وقد رأيت الناس يتجهون إلى منجرة أبو خالد كما يسمونها فدخلت معهم لأني غريب ولا أعرف أين أذهب، وبالطبع لا أتمنى أن يعتقلني الجيش مرة أخرى، ثم خرجت بعد أن خرج الناس ولكن أين سأذهب ليس لي مكان وقد عاد القصف وقتها فقفلت راجعاً إلى المنجرة لعلي بعد ذلك أتدبر أمري بالخروج، فدخلت عدة فتيات فقمت فوراً بالإختباء بأحد البراميل لكي لا أخيفهن، ولخوفي منهن بنفس الوقت، وبعدها دخل أفراد يلبسون الزي العسكري وقاموا باغتصابهن ثم خرجوا وعندما حاولت المصابة التي حملتها ضرب أحدهم من الخلف عاجلها بضربة ظن الجميع أنها فارقت الحياة على إثرها، وبعد أن خرجن من المكان اقتربت من الفتاة وحاولت أن أسترها فشعرت بنبض في صدرها فحملتها خارجاً لعلي أستطيع انقاذ حياتها، وحقيقة لا أعرف أهي بخير الآن أم لا، وهل نجحت فيما كنت أريد؟ ثم رأوني بعض الرجال واصطحبني أحدهم إلى عيادة ميدانية والآن أنا بينكم..

- تقول أنك صحفي؟ لماذا اعتقلوك؟

- اعتقلوني لأني لم أكن أحمل الهوية المدنية خاصتي وعبثاً حاولت أن أشرح لهم أني قادم من خارج البلاد ولكن لم يستوعبوا..

- ماذا يؤكد لنا أنك صحفي وأنك لست مدسوساً لكشف مواقعنا ومواقع غيرنا من الثوار؟

- هذا نفس ماقالوه لي في المخابرات الجوية حتى أنهم أعطوني اسماً آخر غير اسمي وتم الإفراج عني بناء على ذلك الإسم وبالطبع لم يكن لدي ما يثبت من أنا خاصة أنه على الحاجز الذي اعتقلني قام العسكري بأخذ كل وثائقي ونقودي، ببساطة يمكنك التأكد من شخصيتي بمجرد أن تكتب على الشبكة العنكبوتية اسمي لتظهر لك صوري وبعض مقالاتي! أو أن تأتي بالعسكري الذي صادر شخصيتي وتستجوبه ليفيدك بكل شيء.

مع انتهاء كلمتي الأخيرة دخل علي، كان صديقاً قديماً من حمص، رافقني خلال دراستي الجامعية حيث أكد لهم أني ليس من الممكن أن أكون عميلاً للنظام، توقف القلب عند رؤيته فكيف له أن يكون هنا وماهي أخباره وآخر قصص عشقه وماذا فعلت به الدنيا؟ كلها أسئلة لا يملك أحد سواه الإجابة عنها..

انتهى الحوار هنا بعد التزكية التي قدمها عليّ و قد وعدني بأنه سيساعدني على إتمام ما أريد من تصوير لإنجاز أفلامي الوثائقية، فطلبت منه كاميرا صغيرة بعد أن أبرمت له وعداً بعدم إفشاء أسمائهم ومواقعهم وآليات عملهم إلا في حدود ما يسمح العمل الذي أريد، حقيقة لمست فيهم الألفة والمحبة والمودة.

بعد عدة أيام بينهم جرى العديد من النقاشات حول الثورة واتجاهاتها، وما يحدث في المدن الأخرى وعن الإعتقال في سجن المخابرات الجوية وما رأيته خلال تلك الأيام وقد طلب مني أحدهم أن أكتب ذلك في رواية وقد وعدته بذلك، أما هم فكانت أحاديثهم دائماً عن المواجهات وزرع العبوات الناسفة واستهداف سيارات الجيش والأمن وعن آليات جديدة لابد من اتباعها لتأمين الموارد الطبية للمراكز الميدانية الطبية التي تعمل على إسعاف أكبر كم ممكن من الجرحى والمعطوبين قبل أن يتحولوا إلى شهداء كما حدث مع تلك الفتاة التي علمت فيما بعد أن اسمها فاطمة، لم تفارق صورتها عيناي اطلاقاً أما باقي الفتيات فلم أحاول أبداً الخوض في تفاصيل ما حدث لهن لأن الحديث بهذا الأمر يقارب الخطوط المحرمة، ولكني علمت في وقت لاحق أنهن تزوجن فوراً من شباب يقاتلون إلى صفوف الثوار.

***

البحث عن الشهادة..

للقهوة نكهة مختلفة خلال هذه الأيام، للقهوة نكهة مختلفة في كل مكان وزمان فلها طقوسها التي يجب أن تحترم أينما وجدت، وحاملها دوماً هو حامل كلام وأحاديث لذا مع حضور دولة القهوة الصباحية أو المسائية كانت تنفتح شهيتهم للحديث بأمور كثيرة تبدأ بالعمليات العسكرية و الإعتقالات التعسفية وأسماء الشهداء و تنتهي بعلاقات الغرام والجنس، حاولت مراراً أن أجد مقاربة واقعية بين السياسة والجنس فكلاهما يسيطران على بني البشر رغم إظهار كل من قابلت بحياتي عدم اكتراثه بالإثنتين!

غالباً ما كنت أنتقل بين مواقعهم والمركز الإعلامي التابع لهم برفقة كاميرتي التي زودوني بها، و قد بنيت مجموعة من العلاقات التي أستطيع وصفها بالممتازة وربما الذي سهّل تلك المهمة رغم حذرهم المستمر من كل شيء فوق الأرض أو تحته وجود علي بينهم.

علي..

يكبرني بشهرين وثورة، كان معي في كلية الآداب وقد جمعتنا أيام طويلة رحنا نتذكرها كلما لاح لنا موقف من الماضي، فالماضي وحده الذي يستطيع إشعال شمعة في الحاضر لتنير المستقبل، لاشيء يرضيه كان

خلال دراستنا، عصبي المزاج ولكنه اليوم بدا أكثر هدوءاً وأكثر رصانة وعندما سألته عن السبب قال لي: إنها ثورة!

إلتحق بصفوف المقاتلين من اللحظة الأولى لتشكل بعض السرايا التي تدير الصراع المسلح بين السلطة والمحتجين، ترك كل قصص العشق خلفه وكل ماضيه وبحث عن مستقبله متمسكاً بالحاضر الذي يعطيه إشعاراً بالحياة لاأكثر، في زحمة أحاديثنا ذكر أبو علي ذلك الذي أبلغني خلال دراستي بمراجعة فرع المخابرات الجوية فسألته عنه فكانت الصاعقة..

أبوعلي استطاع بجهده الكبير العظيم أن يتخطى السنوات الأربع من دراسة الأدب العربي بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف ثم لينهي الماجستير بزمن قياسي ثم ليخوض غمار الدكتوراه حيث قام بإعداد أطروحة عن مفهوم الوطن في شعر نزار قباني! أبو علي اليوم مدرس وأستاذ في الجامعة!

علي استطاع التوظف في الجامعة بعد تخرجه أما سبب انضمامه لحاملي السلاح فقد قال لي: إن الأزمة كانت مفاجئة لكثير من أصحاب العقول الضيقة ولكنها حدثت بفعل هذا الشعب الجبار وعندما بدأت تظهر أولى ملامحها في الجامعة اتصل بي مسؤول فرع الحزب في الجامعة لكوني أحد الموظفين فذهبت إليه وما إن دخلت مكتبه حتى عرض عليّ مسدساً كي يكون معي بحجة الدفاع عن نفسي ولحماية أمن الوطن من المخربين وقد أعطاني صلاحيات واسعة بإطلاق النار دون الرجوع لأحد بمجرد

الإشتباه بوجود حركة تمرد، وقتها أيقنت أنني لو كنت في مكان غير هذا لكنت هدفاً مشروعاً لحامل سلاح آخر، فأخذت قراري بالمضي نحو الثورة.

خلال جلساتنا أنا وعلي كان عامر يتردد علينا بينما انشغل علي ببعض الترتيبات الخاصة بالمنشقين الجدد وحين عودته رحت أروي له ما حصل من تغيرات في حياتي بينما وعدني أن أزوره في بيته لأتعرف على ابنته الصغيرة ألما التي شاهدت صورها عبر هاتفه المحمول.

مهمة علي كانت تنحصر في تسجيل المنشقين الجدد والملتحقين الجدد فكان يعرفهم ويعرف مناطقهم وقد تم إسناد هذه المهمة له لخبرته في العمل الإداري والتنظيمي فكلما مر واحد منهم ليلقي السلام كان يعطيني نبذة سريعة لا تتجاوز سطرين عنه وعن عائلته ودائماً كنا نختلف في جغرافية المناطق حين يذكر اسم القرى التي ينتمون لها.

عامر..

كان كثير الإنزواء إلى نفسه والجلوس وحيداً، وقليل الكلام فهو لا يتحدث إلا بقليل من الأمور ولا أتذكر أنه كان يعترض على شيء، شاب في منتصف العقد الثاني من عمره تقريباً، يلازم ارتداء قبعة فوق رأسه، فلم يحدث أن رأيت شعره خلال فترة وجودي بينهم، تحدثنا كثيراً خلال فترة كلامه وقد كنت مستمعاً جيداً أثناء انشغال علي، قال لي إنه لم يفكّر يوماً في حمل السلاح، حتى الخدمة الإلزامية كان يفكر بالهرب منها إلى

الغربة كي لا يحمل السلاح، ولكن مقتل والده على يد الجيش دفعه لأخذ قراره الأصعب، سلاحه لا يفارقه إطلاقاً ولحيته بدأت بالبروز مع أنه كما أخبرني لم يكن يطلقها خلال دراسته للصيدلة.

خلال اللحظات العصيبة التي يقضيها الإنسان في حياته وحين يشعر حقيقة بأنه قارب النهاية أو كاد الوصول إليها، يكون على أتم الإستعداد للبوح والحديث عن كل التفاصيل، كل التفاصيل التي تهم والتي لا تهم، يشعر وكأنه يحمل وزناً زائداً في كل شيء، كالذكرى والحياة والحب والكره والإيمان، شلال المصارحة الذي يفتح الشباك الحياة على مصراعيها دون أي توقف يدفعه للحديث، في لحظة كنت أحاول إقناعه التحدث أمام الكاميرا بعضاً من المواقف التي حدثت معه خلال محاولتهم زرع العديد من العبوات الناسفة ولكنه استطرد في الحديث عن عائلته فقال لي: إنه شقيق لأربع بنات هو أكبرهن، والده كان موظفاً بسيطاً في المالية أحب والدته التي كانت تنتمي لطائفة أخرى غير طائفته، ولكن الحب لا يعرف الطوائف ولا يعترف بها أبداً، تزوجته برغم كل المعارضة وقد شعرت بعد أن كبرت قليلاً بتلك الحساسية التي يعاملني بها أخوالي وقد جادلتهم مراراً ولكن عبثاً كنت كمن ينفخ في قربة ماءٍ مثقوبة، كل التفكير المنطقي يتوقف عند هذه اللحظة، فقَد قتلوه، نعم لقد قتلوه لأنه قرر أن يكون على الحياد و ينأى بزوجته و بناته عن كل شيء، لقد دفعوني لأكون هنا!

- هل وجدت نفسك هنا بالصدفة؟

- أبداً.. بعد مقتله وخلال ترتيبات الدفن اقترب مني شيخ الجامع في حارتنا وقال لي لابد والأخذ بالثأر، وأرشدني إلى هذا المكان فأتيت وطلبت الإنضمام وبقليل من التدريب استطعت استخدام هذا السلاح.. القضية باتت شخصية بحته، أريد أن ترتاح روح أبي لكي أرقد أنا الآخر بسلام، لقد رأيته في المنام أكثر من مرة وكان يربت على كتفي، أمي ذهبت إلى أخوالي وأخواتي البنات معها.. لم أرهنّ منذ وقتٍ طويل، حقيقة لقد اشتقتهن.. هنا الأشخاص مدنيون أغلبهم وقسم قليل قد انشق من الجيش والأخيرين يعاملونا على أننا أشخاص عديمي المسؤولية، فالعقلية العسكرية تمنعهم من اعتبارنا أشخاصاً منضبطين..

- ألم يكن لك حبيبة؟

- نعم، وقد وعدتها بالزواج منذ سنتين تقريباً، على أمل التخرج والسفر فوراً، صحيح لقد سمعت من بعض الأشخاص أنه قد تم اعتقالك وتعذيبك هناك؟ هل لك أن تصفَ لي ما حدث بالضبط؟ تلك الظروف والمشاهد؟ أريد أن أراها من الداخل؟

- سأبدأ بكتابة رواية جديدة فوراً عن كل ماحدث بعد أن أنهي الفيلم الذي أعمل عليه الآن.

كان بين الفينة والأخرى يصمت وكأنه يأخذ قسطاً من الراحة بعد جولةٍ من الكلام، مختلفاً هو عن بعض الآخرين الذين انشغلوا بمتابعة أخبار القرى والبلدات المحيطة وتلقس أخبار أهلها، روى لي عن رحلة قام بها خلال دراسته إلى الكفرون وعن قصة عشقه هناك في قلب أشجار

السرو الكبيرة وأشجار البلوط الوارفة الظلال، لم يقل اسمها بل ظل يحتفظ به لنفسه فقط، خائفاً على الأبجدية من الأبجدية ومن قصص البوح فلم يكمل السرد للنهاية بل اكتفى بالقول:

- الله يستر عليها.. لقد تزوجت و مضت إلى حال سبيلها..

دائما في قصص الحب هناك رابح وحيد وخاسران اثنان معاً، يبقى الرابح وحيداً دوماً دون منازع، ربما في حالة الحب الرابح الأوحد يبقى الفراش الذي يضم جسد عاشقين فالذكر يقضي شهوته والأنثى تصل نشوتها وربما كلاهما يفكر بآخر!

في قصص الحب التقليدية، غالبا هنالك ضحية غير مكتمل المعالم والملامح، بعضه تشوه من صدمات الزمن وبعضه الآخر ظل مواربا بابه للحياة وما إن تأتي تلك التجربة الأخرى وتلمح في أفقه فتاة جديدة وحباً يانعاً حتى ينسى كل ماكان من هوى قديم،

سألته:

- هل رأيتها بعد أن تزوجت؟

- رأيتها مرتين، في الأولى كان بطنها كبيراً في إشارة لحملها وقد توقفت كما توقف الدم في جسدي، حاولت أن أسحب نفساً فلم أستطع، فسارعت حينها الإنسحاب من المكان.. وفي المرة الثانية كان على يدها طفل و بجانبها آخر، يومها تكلمت معها وسألتها عن أحوالها وعن أسماء أبنائها وبلا شعور حملت أكبرهم وقبلته وأعدته على الأرض

بعض المواقف تلزمنا أن نقوم بأشياء لا نريدها ولكننا نفعلها هكذا لا لشيء فقط لنثبت لأنفسنا أننا تخلصنا من كل شيء له علاقة بها، ولكني في الحقيقة لم أتخلص منها لأني أذكرها اليوم وأنا جالس معك..

كان عامر يحاول دوماً أن يبدو بخير بعيداً عن كل الوزن الزائد من الذكرى التي يحملها، وقد حاولت أن أبقى على مسافة واحدة من كل ذكرياته فهي منطقة محرمة لا يجوز الإقتراب منها إلا بتصريح منه وقد كنت حريصاً كل الحرص على عدم التورط بفضولي مهما حاول أن يسحبني إليها..

- هل ستكتب عني يوماً يا أستاذ؟

فاجأني هذا السؤال فرحت أروي له عن فهد صديقي القديم الذي سافر قبلي ولم أعد أعرف أي أخبار عنه، لقد جمعتني به علاقة فريدة برغم اختلافنا الشديد في كل شيء، كنا في خلاصة الأمر كقطبين أحدهما سالب والآخر موجب وبرغم التنافر هناك مساحة للتجاذب لا ندركها إلا أنا وهو. في أحد الليالي دخل إلى مقر سكني ودعاني إلى وجبة من العشاء وقد ذهبت معه دون أن أتردد فوجدت نفسي في أحد النوادي الليلية وعندما قررت الإنسحاب كان مفعول الخمرة في رأسه قد استطاع أن يُذهب به إلى أماكن بعيدة، فحاولت أن أحمله لنخرج ولكن عملية البوح كان أسرع من خطواتي فاستسلمت لبوحه على درج الملهى.. عادت كل القصص التي رواها إلى مخيلتي ولم أتذكر أني أخبرت أحداً عما قاله ليلتها، حتى هو بعد أن وضعت رأسه تحت صنبور المياه في بيتنا كي

يعود إلى رشده وبينما كنا نشرب القهوة سألني عما تحدث به فلم أجبه وكأن شيئاً لم يكن..

لحظتها اكتشفنا أن الفرق بيننا لا يعدو أنه يحب سلطة الخضار وأحب أنا التبولة بينما هو معجب بتجربة الطوائف في لبنان وأنا معجب بماليزيا وهو يشجّع ألمانيا في كأس العالم بينما أميل أنا إلى إنكلترا وغيرها من التفاصيل التي فرقتنا بينما جمعتنا أسرار قالها في غيبة من الوعي مع حضور الخمرة..

ربما سأكتب عنك يا عامر.. بل من المؤكد أن أكتب عنك يوماً وعن حبيبتك وعن أمك وسلاحك وأدويتك وشعرك الطويل.

عامر ذات ليلة جاءني على عجل وقال لي إنه ذاهب في مهمة ولم يعد أبداً، فقد كانت المهمة أكبر منه حيث خرج مع خمسة من رفاقه لتلغيم الجسر القريب وتفجيره حين مرور سرب من الدبابات الذاهبة لقتل أناس آخرين ولكن القناص فاجأهم بإطلاق رصاص حيّ ومباشر حيث فارق الحياة ثلاثة منهم وعاد اثنان ليرويا كل ما حدث، رحل عامر دون أن يكمل قصته الوحيدة وبقيت أسراره معي دون أن يطلع أحد عليها من الموجودين..

كم يشط خيالي بعد أن رحل دون مبرر لوداعي فالثورة كما قال مستمرة حتى النصر، فهناك ما يستحق النضال، اطمئن وأنت في ديارك يا عامر فحبيبتك كما هي وربما باتت حبلى بطفل جديد ووطنك كما تركته ينتظر وكل شيء على ما يرام..

في الصباح عزمت على المسير عنهم والإتجاه إلى حماه، فحملت كل الذواكر الرقمية ومضيت بعد أن ودعتهم وبرغم إصرارهم على بقائي ومتابعة تطورات الموقف لكني فضلت الإنصراف فهناك ما ينتظرني، من جديد أحمل حقيبة صغيرة وأمشي برفقة بعض الأشخاص الذين تطوعوا لإيصالي لمكان آمن كما قالوا، نعبر كروم الزيتون متراصين ومتفرقين، كأن الأرض تسترنا والشجر يسترنا والسماء تسترنا وحبات التراب تتآمر مع أقدامنا لستر كل شيء، حاولت أن أودعهم كلهم دفعة واحدة وأن أستذكر فيهم عامراً الذي رحل على حين صدفة.. لعناقهم لذة الحياة ورغبة الموت، لعناقهم وتلاصق الخدود مع بعضها وجع غير مفهوم وكأنه اتفاق على الوداع الأخير واتفاق على مغادرة الحياة بلباسهم الحالي أو استعدادهم لمغادرتها في أول قاطرة تتجه للجنة كما كانوا يقولون، لن أنسى أبداً لحظات وداعهم، لقد أوصيتهم أن يكونوا على حذر ويتذكروا بأن هذه بلادنا جميعاً، فقال لي عصام: لا تنسى أن تكون صورنا جميلة في فيلمك.. إياك أن تنسى حتى لو أننا قد لا نرى الفيلم ولكن هناك من سينقل لي الأخبار في الجنة وعندها لن أسامحك اطلاقاً..

عصام لم يكن عمره يتجاوز السابعة عشر عاماً!

طلبت منهم قبل المغادرة أن نمر على الضفة الأخرى حيث يتظاهر المئات فقد كنت أرغب بحضور بعض التجهيزات هناك وبعد اتخاذ ترتيباتهم الأمنية استطعنا الدخول إلى المدينة مرة أخرى لأحظى

بالجلوس بينهم والحديث معهم وفي حقيقة الأمر كنت أرغب بلقاء الأب باولو داليليو أو بولس كما يحب أن يسمي نفسه..

كما تركته منذ ست أعوام تقريباً، شعره المائل للصفرة قليلاً ولحيته الذهبية المتشربة باللون الأبيض ودشداشته السوداء وحبل قديم يتوسط خصره، بطوله الفارع استطعت أن ألمحه وسط الزحام بعد أن سمعت عن وجوده في تلك المنطقة وما إن وقفت أمامه حتى عرفني فقد كان ومازال يتمتع بذاكرة تأبى النسيان فكل الصور مختزلة في رأسه، ربما تغيرت ملامحي أمام ذلك الإيطالي القادم من خلف البحار والذي استطاعت شمس دير مارموسى الحبشي أن تحيله سورياً بامتياز، احتضنني وجلسنا نتذكر لقاءنا القديم وكلا منا حول رسالته الأكاديمية في رجاء الإسلام واتجهنا بالحديث أكثر حول مجريات أرض الواقع الذي فرض عليّ المغادرة بعد وقت قصير من وصولنا لاعتبارات أمنية كما قال مرافقي!

قد يمر الإنسان في عدة مراحل بحياته لا يخطط لها أبداً و قد يسعى دوماً لإجتيازها بأقل الخسائر الممكنة فتكون وقتها أعمارنا حكراً على الزمن بكل خفاياه دون أوجاع ودون ضرائب، وقد كنت أدفع ضريبة لخطوتي التي كنت مقتنعاً تماماً بتنفيذها فهناك ما يستحق لإيصاله للعالم الآخر، العالم البعيد، ذلك العالم الذي لبس نظارته الشمسية و وضع في أذنيه جهاز التسجيل الموسيقي لكي لا يرى ولا يسمع ما يدور على هذه الأرض، كان ثمة إجرام لم أقرأ عنه أبداً و لم أره أبداً إلا هنا، نصف انسان

و نصف رجل و نصف امرأة ونـصف رضـيع و نـصف حيـاة ونـصف موت، كل شيء لا يكتمل حتى العمليات الجهادية أو القتالية قد يتدخل في سياقها قناص فيفسدها، فهل يفسد الموت والرصاص ما حملتـه معـي من ذواكر رقمية تختزن صوراً لا يملكها غيري عن أحداث شهدتها مـع غيري ممن لا يملكون من الوقت بعضه لكي يسردونها قبلي، كمن يحمـل قرآناً في عباءته، كراهب يحـتفظ بـصليبه الأخـير كنـت أحمـل ذواكـري الصغيرة في جيبي الداخلي كي لا يطالها الموت والرصاص..

قبل أن أتركهم وصل شخص جديد وألقى عليهم التحية على عجـل وما إن نظر إليّ حتى توقفت عيناه وكأنه يستعيد جزءاً مـن ذاكرتـه علّـه يحظى بالزمن الذي رآني به، ينتبه أحدهم فينهره فيؤكد أنـه رآني، لـيس على التلفاز بل بالحقيقة، أقول له ربما يخلق من الشبه أربعين، عندما سمع نبرة صوتي صاح أنت هو! أنت!!، أنت الذي تم اعتقالـك عـلى الحـاجز الطيار على الأوتستراد وأنت قادم من دمشق؟

توقف الزمن عند كلمته فمن يكون هذا القادم حتـى يـذكر لي مكـان اعتقالي وهناك آلاف الإعتقالات التي تتم يومياً، لابد أن له القصة الغائبة عني.. أسأله:

- من أنت؟

- أنا عسكري كنت ضمن الحاجز هناك، وقد رأيت كيف أنزلوك وصادروا أوراقك وحقيبتك وضربوك ثم نقلوك.. أقاطعـه بإشـارة مـن يدي وكأني أطلب منه التريث:

- أرجوك.. أرجوك لنجلس قليلاً.. أعد لي القصة من أولها..

- كنا هناك قبل اعتقالك بأربع ساعات أو أكثر، وقد قاموا باعتقال عدة أشخاص آخرهم كان يحمل سلاحاً في سيارته، وقد ربطوه فوراً وصادروا السلاح وأخذوا السيارة وماهي إلا نصف ساعة حتى توقفت سيارة أخرى ونزل منها رجل واحد وطلب مقابلة الضابط الجالس في الكوة، وعرض عليه أن يدفع نصف مليون ليرة كي يخلي سبيل الرجل!

- ومن الطبيعي أنهم بحاجة إلى بديل عن ذلك الرجل؟ قام أحد الواقفين، فأشرت له بالصمت وطلبت من المتحدث أن يكمل سيرته..

- عشر دقائق كانت كافية لإنزال المبلغ المتفق عليه وعده كاملاً وانصراف صاحب السلاح مع الرجل الذي فداه بالمبلغ، وبدأت رحلة البحث عن بديل..

- ما حاجتهم للبديل إذا كان الأمر فقط في الحاجز؟

- أبداً.. لقد شعر الضابط أنه أحرز نصراً حين أخبر إدارته أنه تم اعتقال عناصر معادية وبحوزتها السلاح، لذا كان من الطبيعي أن يجد بديلاً للرجل وكنت أنت القادم من السماء لهم كقربان إبرهيم.. بالمناسبة لقد أخذ العسكري الذي قام باعتقالك ما يقارب خمسين ألف ليرة مقابل عمله..

- أولاد الكلب..

الآن اكتملت القصة عندي، بديلاً لشخص آخر لا أعرفه ولن أعرفه يوماً، قضيت مكانه أياماً كانت من المفروض أن تكون له، وتلقيت صفعات على وجهي بدلاً من وجهه وحملت أمي وأختي الشتائم بدلاً عن عائلته!

- ثم ماذا؟

- لقد قاموا بتمزيق جواز سفرك و تكسير الكاميرا التي كانت في الحقيبة ثم فككنا الحاجز وانصرف الجميع بعد أن تقدم منك العسكري وضربك بأخمص البندقية الروسية على رأسك ففقدت الوعي قبل أن تحضر الزيل لنقل المعتقلين الآخرين معك، حيث تقدم الضابط من الدورية القادمة وسلمهم أوراقاً وأشار إليك دون أن نعرف ماذا قال لهم.. أنا مستغرب من وجودك هنا.. لم أكن أتوقع رؤيتك اطلاقاً.. كيف خرجت من بين يديهم؟

- لقد خرجت في العفو الأخير بعد أن فشلوا بإقناعي أني محمود السعيد ذلك الإسم الذي عشت في عباءته طيلة فترة وجودي بينهم.. ولكن أنت ماذا تفعل هنا؟

- لقد انشققت عن الجيش منذ فترة وانضممت إلى الثورة..

***

عودة إلى البداية..

الأوراق البيضاء أمامي تغريني بالكتابة وتوثيق كل ما جرى معي، بعض الأفكار تأتينا هكذا دون أي ترتيب فكيف لي أن أفكر بهذا بعد أن وصلت إلى هنا وقد لامست أطراف الموت أكثر من مرة، على أبواب حماه مررت ووقفت وكأني أسترجع ذاكرتي من الأحجار.

لحماه اثني عشر باباً وكنت أنا بابها الثالث عشر، تأملت مداخلها التي أعرف وعدت بشريط حياتي إلى بداياتي وتلك النهايات، عبرتها كنبيّ يركب على بغلته ولاشيء معه سوى روح القدس وإيمان كبير بأن الله لن يخذله. كنبيّ لا يقع في الخطايا مشيت على تراب أبوابها فلكل حارة معي قصة عشق قديمة لم أكملها و في كل بيت لي قصة وفاء و هيام.

سيارة صغيرة وثلاثة شبان كنت رابعهم بينما انشغل أحدهم بالسرد عن المجازر التي حصلت في المشاع والأربعين وقد اختزلت فيه كل ملاحم عشقي وحبي، ونظري متوجه دوماً إلى تلك المدينة حيث شهدت أغلب مراحلي العمرية، روحها حاضرة كما كل أحيائها برغم الدمار والقهر وبكل تشوهها ونضارتها و دمارها وكأنها أنثى مغتصبة تقص ضفائرها أمام كل العيون لغياب الرجال في القبيلة..

مروان وشهم وعبدالعزيز ثلاثة من شباب حماه، لم أكن أعرفهم قبلاً فقد التقيت معهم بعد أن عرفت الجزء الآخر من قصتي، لقد تكفلوا

بإيصالي إلى حماه والتعاطف ظاهر بين أعينهم وفي أفئدتهم، يحرصون عليّ كما لو أنني حملت السلاح معهم، حاولت أن أفتح حديثاً معهم حول الأوضاع في البلاد فعرفتُ أنّ الإصرار هويتهم ومنهجهم وفي هذه الحالة الصمت كان أفضل من كل شيء..

السيارة البيضاء تسير بنا على طريق زراعي لكي نتفادى الدخول من البوابة الرئيسة لحماه حيث ماكان يعرف بدوار الرئيس، وعورة الطريق تدفعنا جميعاً للصمت، فانشغل كل واحد منهم بمراقبة الطريق بينما رحت أنا أتأمل الأوراق البيضاء الموجودة إلى جانبي وكأنها مشروع عمل لم يكتمل بعد وبطبعي أكره اللون الأبيض وكل ما يتعلق به من طبقات واتجاهات فرحت أسبح بين الأبجدية عليّ أرسم البهجة على هذا البياض القاتم حيث أراه مغمضاً عيناي وأرحل بعيداً عنهم..

الغرفة كبيرة جداً، المكتب يتصدرها وخلفه فوراً إلى الأعلى تتموضع صورة القائد وإلى جانبه مكتبة تضم مئات الملفات الملونة وتحتها ثلاثة أدراج بجانبها شاشة تلفزيونية تنقل ما تبثه القناة الرسمية، كرسيان يتقدمان على الطاولة الكبيرة وبينهما طاولة عليها منفضة سجائر فيها أربعة أعقاب شبه مكتملة وكأسان من الشاي شبه فارغان، يدخل الرجل صاحب السطوة في المكان وخلفه ثلاثة عساكر، إثنان منهم اقتادوني من تحت إبطي فشعرت أن قدمي تطير عن الأرض وأسبح بين أيديهم، وما هي إلا لحظات حتى أوقفاني فشعرت بالسلام. دائماً يسعى

الإنسان للإستقرار ويكره الهلامية في كل الأشياء..هذا السلام لم يدم طويلاً فقد قُطع بصوتٍ غليظ:

- هات لشوف شو قصتك؟

- والله يا سيدي مالي لا قصة ولاشي.. أنا مسكين وموجود هون بالغلط، أناا..

- اخراس ولاا.. نحنا ما بنغلط.. ((ضربة على نقرة الرأس توقعني للأمام و أصابع أخرى تجذبني فتعيدني للوضع الذي كنت عليه قبل الإهتزاز))، محمود السعيد، هذا اسمك بالكشوفات اللي عنا، احكيلي شو قصتك أحسن ما بهدلك، والله بوديك لورا الشمس..

في الحقيقة كنت أحلم دوماً أن أعرف ماذا يكون خلف الشمس وكيف هو شكل النجوم في الظهر وكيف يكون سطح القمر وماهو سر اللون الأحمر في المريخ..

- ياسيدي.. أنا صحفي و من الممكن أن تتأكد من..

- يعني صعبة عليكم، مفكرنا هبلان أو بمخيطة يا تافه.. تهمتك عندي تجارة السلاح وتسهيل حمل السلاح ضد الدولة.. بدك تسقط النظام يا أخو ال..

- ياسيدي أنا مالي علاقة بشي.. أنا جاي أزور أهلي و شوفهم واطمئن عنهم..

كان يهاجمني وكأني من فجّرت الثورة ضدهم وكنت أوارب في أجوبتي مُصراً على أني أنا لست أنا الذي يريده هو، فأنا أنا أما أنا الذي

أراده هو فَقد افتدى نفسه قبل أن أصل بقليل، كنت أحس بـذلك الأنـا يحاصرني ويجبرني على ارتداء عباءته والتحدث بلسانه والنظر بعينيه، يهدد الأنا الذي أسكنه بأن هناك صوراً له في إحدى المظاهرات فأطلب منه أن يحضرها ولكن هو لايرد.. يركل الأنا الذي يسكنني بضع ركلات فأخر أنا والأنا كلانا، ففي الضرب كنا نتساوى رغم اختلافنـا في الإتجاهـات، وسط ضحكات الجند وعناصر الأمن أنزلوني إلى تحت كما أمرهم بعد أن رنّ هاتفه النقال حيث كانت ابنته عـلى الطـرف الآخـر تـدعوه للعـشاء سريعاً كما فهمت من بعض الكلمات المتطايرة إلى مسمعي..

أقفل هاتفه وذهبَ وبقيت أنـا بـين أيـديهم، فنزلنـا الـدرجات التـي صعدناها منذ قليل، كانت الأقدام والأيدي والركلات والبصاق يـأتيني من كل اتجاه، الدرج الأخير مظلم تماماً أعد طبقاته ست درجات واثنتين آخرتين غرقتا بالدم، الأرض شابها بعض الماء والدم، الهـواء فيـه بعـض الأكسجين ممتزجا برائحة التبغ والدخان والدم، في الضوء القـادم مـن لا مكان ليس هناك أمل، فقط وكأنه الموت الـذي يـسيطر عـلى كـل شيء، أشخاص عارون تماماً وبعضهم ستر نفسه بقطعـة قـماش، مـربّطين إلى أعمدة متفرقة، مشدودة أيديهم على اتساعها وبعضهم معلقـين للأعـلى، أمرٌ من جانبهم فيصرخ أحدهم: أغلقوا عينيه.. أغلقوا عينيه..

أنظر جانبي في الـسيارة مـازال كـل شيء بخـير والرجـال منـشغلون بالمراقبة، أحاول أن أفتح عيني على اهتزازها هرباً من صورة الظلام الذي داهمني فجأة إثر تذكري وضع القماش على عيني، ربما لم يكن قماشاً، ربـما

كان قطعة من دولاب سيارة أو ربما كان قطعة من ثياب معتقل مات عارياً.. فكل شيء جائز في ذلك المكان..

كانت الصرخات تخترق مسامعي، والدموع تكاد تلامس وجنتي تماماً، أوجاعهم باتت تسكنني وكأنني أتيت إلى هنا كي أحمل آلامهم كلها وأمضي وحيداً بهوية أخرى، لقد أرسلني القدر متنكراً بزيٍّ آخر كي أعيش تجربتي بينهم، تجربة على مقاسي كما كانت تجاربهم على مقاساتهم، أشعر بجسم صَلبٍ تحتي يقعدونني، عليه فآخذ شكل الكرسي فأخمن بيني وبين نفسي: إنه كرسي يميل خلفاً، لا إنه ليس كرسياً، ربما هو برميل مفتوح. وفي وقتٍ لاحق علمت أن اسمه الكرسي الألماني، يضغطني الحديد تحت فخذيّ ويقوّس المقعد ظهري بانحناءة تجاه البطن فأشعر أن رئتي ستخرج من صدري وكليتاي ستخرجانِ من أذناي ومثانتي من أصابع قدمي، أصرخ:

- أنا لست محمود! أنا لست محمود الذي تريدون..
- لكان مين يا أخو ال..

تعودت منذ اللحظة الأولى أن أسمع الشتيمة وأصمت دون أن أنبس بكلمة واحدة ودون أن أبدي أي امتعاض، فرفضها أو الاستياء منها يعني زيادة العقاب ورفع مستوى الشتيمة.. كل من هناك ربما جلس على الكرسي، كان من المفترض أن أفكر بالصرخات حولي والبكاء الذي سيطر على المكان ولكني ذهبت بخيالي إلى مكان آخر..

طاولة عليها شموع وفاكهة وأطايب الطعام وست كراسٍ يجلس عليها أربعة أطفال وأمهم والوالد الذي قد وعدَ بالقدوم للعشاء معهم، ربما أم كلثوم كانت حاضرة بطربها هناك أيضاً، السيد صاحب السلطة الذي أمر بإنزالي هنا يجلس الآن بين أولاده دون أن يعطي الفرصة لنفسه بالتفكير بجلستي هنا أو بوجود هؤلاء، فنحن كما قال لنا خلال الفرز الأول: كلنا حشرات لا حاجة للدنيا بنا، و إن متنا لن يشعر أحد بغيابنا!

هو يعيش حياته الآن بكل طبيعية مع يقينه التام بأن هناك من يتلقى أشد أنواع الجرائم بأمر منه، الصرخات تشتد وصورته تغيب وتحضر كما ابنته الكبرى التي تخيلتها بين يديه يمسح على رأسها ويعدها بإجازة آخر الأسبوع يذهبون بها إلى البحر.

الألم يشتد وهناك من فارق الحياة كما قالوا، حاولت أن أغيب عن الوعي ففشلت فكل ما قاربت على الوصول للغياب كان سطل الماء جاهزاً لغسلي كاملاً كي أسترد يقظتي المريضة وخيالي البعيد.. لأتذكر أني ما زلت هنا وأن هذا الألم يسكنني أنا دون غيري..

قدماي ترتفعان فوقاً ومع ارتقائهما يسألني رجل بجانبي :

- بتعرف تعد؟
- إي بعرف..
- عد..

واحد، إثنان، ثلاثة، خمسة، خمسة وعشرين، خمسة وأربعين، ستون، خمسة وسبعون، ستة وتس..، لم أستطع أن ألفظ الكلمة الأخيرة فقد

إختلطت مع صرخة أطلقتها من أبعد خلية في جسدي علها تصل لكل آذان العالم.. شعرت وقتها أن الصرخة أخافته فتوقف عن رمي الخيزرانة اللاسعة على أسفل قدمي وأصابعي..

في الحقيقة تشكلت لدي قناعة في تلك اللحظة أن مثل هؤلاء لا يخافون ولا يعرفون الخوف إطلاقاً فمنطق القوة الذي عاشوا به يدفعهم دوماً للتلذذ بأوجاع الآخرين وتعذيبهم، كان الجلاد يوقن تماماً أنه في حال خسر قوته فإن الغلبة لي على الأرض، فالسلطة هي من تبقيه وتحكم عليّ بالبقاء هنا.

- أنا لست أنا.. أنا ما تريدون.. أكتبوا ما شئتم فأنا ما تريدون..

إبتسامته أشعر بها ونشوته بالإنتصار باتت تسيطر على المكان، حملني اثنان من يدي ووضعاني على عامودٍ انتصبَ جانباً وجعلوا ذراعي متعانقتان مع خشب العامود وعلّقاهما بسلك معدني لم ينقطع أبداً رغم كل محاولاتي بذلك، جسدي مشدود تماماً على العمود وقدماي منفرجتان قليلاً يجمعهما شابك معدني لمنعي من الحركة طيلة الساعات القادمة، كنت أشعر بتورمهما وانتفاخ أصابعي كما أشعر بكل من حولي رغم القماش على عيوني الذي تمخض بالدم النازل من رأسي..

حالة من الهدوء تنتاب المكان بعد أن سمعت وقع أقدام انصرافهم، فرحت أجمع الصور الباقية من لحظة دخولي حتى جلوسي بين يديهم فإستسلمت للنوم..

- هنا كانت بناية قائمة قبل أسبوع ولكنهم هدموها، مازالت آثارها باقية..

قطع شهم سرد خواطري بهذه الجملة، كان اهتزاز السيارة يشتد و كدت أشعر بالحجارة التي تحتك بإطاراتها، محاولة للإنتقال من الأرض إليها، من الإستقرار للحركة ثم تعود للسكون، فشل في الحركة كان أفضل تعبير عن هذه المحاولة..

- انتبه.. ربما هناك حاجز طيار في هذا الطريق..

- لعنة الله عليهم لقد اتبعوا هذه الوسيلة من فترة، حواجز طيارة سريعة ينصبوها في أماكن غير متوقعة لساعات قليلة ثم يفكونها ويمضون بعد اعتقالات عديدة وبعض الشهداء..

كان لكل واحد منهم قصة عن شهيد أو جريح أو معتقل، عن مشفى ميداني تم اقتحامه وعن مدرسة تم تدميرها وبيوت تم تهجير سكانها وأطفال تيتموا ونساء رمّلت. في الحقيقة كان لكل منهم نوبة بوح لم تبدأ بعد فكانوا يتسابقون دوماً في لحظات الكلام للحديث عن بطولات خارقة لأشخاص قضوا نحبهم خلال الصراع المسلح.. بلا شعور وبلا ترتيب حملت حقيبتي من بين فخذي وتناولت كاميرتي الصغيرة وبدأت بتصويرهم فهي شهادات حية لواقع لم يعرفه سواهم، شعرت أن الله معهم في تحركاتهم، هذا الإحساس قد مرّ بي في سابق الزمن أعرفه جيداً، لقد رأيت نور الله في عيونهم يتحرك جيئة وذهاباً، يظللهم ويحميهم ويحملهم على الأقدار حملاً لدرء أي مكروه قد يأتي..

يرن هاتف عبدالعزيز يخبره الطرف الآخر أن هناك حاجزاً طياراً جديداً على الطريق وعليه أن يتوخى الحذر والدقة في سلوك المعابر، ما إن يترك هاتفه حتى ينحرف يميناً في الأرض الزراعية وتطول المسافة بنا حتى وجد غرفة وسط مساحة منسية من المكان فقال لنا:

- إجلسوا هنا حتى أستكشف المكان..

كانت فكرة موت واحد منهم أسهل بكثير من موت الجميع، فالفرد هنا من أجل الجماعة ولافرق أبداً في الأفراد، كلهم متساوون في العطاء والتضحية والإستعداد للموت، غرفةٌ تتراوح مساحتها بين أربعة أمتار عرضاً وخمسة أمتار طولاً تتموضع وسطها آلة كبيرة تشبه إلى حد كبير تلك الآلة الموجودة في أرض أحد أعمامي، إنها آلة لإستخراج المياه من الأرض، رائحة الصدأ تملأ المكان فانعدام الديزل جعل منها آلة تتحدى الزمن..

في الغرفة صمت رهيب مخيف وبعض الأدوات الزراعية القديمة، يجلس مروان وشهم وأنا ننتظر عبدالعزيز حتى يعود، كان وقت العصر قد دخل فقرر مروان أن يتيَمم كي يصلي فرافقناه لذلك، التيمم ضربتان، ضربة للوجه و ضربة لليدان، هكذا قال شهم بينما اصطففنا لأداء الصلاة وما أن انتهينا حتى دخل مروان بدعاء طويل طلباً للنصر أو الشهادة..

كان هناك متسع من الوقت للحديث فشغلت كاميرتي وبرغم عدم وجود الإضاءة الكاملة إلا أنني قررت أن أكمل فبدأ مروان بالحديث عن الأسباب التي دفعته للإشتراك بالثورة وعن تنظيمهم للمظاهرات

الكبيرة وإدارتهم لها من خلال التواصل بين كل المجموعات ثم ختم حديثه بالترحم على كل الشهداء وخص القاشوش الذي غنّى له أحد أغانيه الشعبية التي انتشرت في كافة أرجاء البلاد حتى وصلت إلى مابعد البحار..

إبراهيم القاشوش كان يكبرني بخمس سنوات أو أكثر بقليل، لم ألتق به يوماً ولكن سمعته وصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، والأهزوجة الشعبية التي أطلقها تم تكرارها بعدة ألسن وعدة قوميات من بلاد العم سام إلى القارة العجوز تخليداً لذكراه حيث رحل ذات صباح بعد أن وجد مقتولاً وحنجرته مقتلعة من جذرها، فيما بعد سأسمع كثيراً من الأقاويل حول إبراهيم عامل البيتون المسلح فهناك من قال لي أنه صاحب الصوت الذي انطلق بالأغنية التي هزت رأس النظام فانتقموا منه باقتلاع حباله الصوتية، ومنهم من اتهمه بالعمالة للنظام الحاكم وأن الثوار هم من قاموا بتصفيته وقتله بعد أن وشى ببعضهم وآخرون قالوا إنه شخص معتوه ليس له ناقة ولا جمل ولكن المعارضين استخدموه كصورة وحشية لجلب الإنتباه لقضيتهم ولفت الأنظار لمشروعهم، بينما جزم آخرون أن الشخص الذي كتب كلمات الأغنية يقيم حالياً في مخيم للاجئين في تركيا!

عندما سمعت اسم القاشوش من جديد تراءى أمامي الشاعر التشيلي الشهير فيكتور جارا الذي ولد في ذات نهار من أيلول من عام 1932 في إحدى القرى القريبة من سانتياغو و الذي اقتيد في صبيحة الثاني عشر

من أيلول 1973 مع آلاف غيره إلى ملعب تشيلي الدولي والذي صار فيما بعد ملعب فكتور جارا، حيث تعرض إلى ضرب وحشي وحطِّمت أضلاعه وأصابع يديه الموسيقيتين، مشهد دموي تفنن به قاتلوه في إعداده و إخراجه، بينما نقلت لنا عيون من شاهدوا الحدث الذي وقع نهارها بعد الإنقلاب العسكري الذي نفذه ديكتاتور تشيلي بينوشيه على سلفادور الليندي الذي ارتدى الوشاح الرئاسي ورفض مغادرة القصر الجمهوري فقتله بينوشيه بدم بارد أيضاً، بعد سنوات طوال كشفت التحقيقات الجنائية عن اسم الضابط المسؤول عن مقتل فيكتور جارا الشاعر الذي صدح للحرية والأغاني الثورية، لقد لعب معه لعبة الروليت الروسي، حيث كان يفرغ بكرة مسدسه إلا من إطلاقة واحدة ثم يدير تلك البكرة عشوائياً ويصوب مسدسه الى رأس الفنان الأسير ويضغط الزناد.. فعل هذا عدة مرات حتى خرجت أخيراً الطلقة المشؤومة وسقط جارا أرضاً فأمر الضابط اثنين من عساكره بإكمال المهمة القذرة وإفراغ رشاشاتهم في جسده بعد أن خلعوا يديه من أصلهما و مزقوا قدميه.

أتذكر جارا و أمامي صورة القاشوش الذي ولد بعد مقتل جارا بست سنوات أو أقل، وربما لم يسمع به يوماً ولم يعرف أنه كان صورة في الشرق لجارا الذي غنى في القارة اللاتينية فأتى صداه في بلاد الشام، بلا شعور كنت أردد بعض أشعاره مقارناً إياها مع أغنية القاشوش الشهيرة..

أغنيتي أغنية حرة

لكنها تمنح نفسها

لكل من يفتح ذراعيه
تائقاً الى عالمٍ.. بلا قيود
قصيدتي سلسلة
لا بداية لها.. ولا نهاية
وفي كل حلقةٍ منها..
أغنيةٌ للآخرين
فلنمضِ في الغناء
معاً.. الى الأبد.. من أجل كل الناس
أغنيتي حمامةٌ
تطير.. تجولُ.. تستكشف الدنيا
تتفجر.. تنشر جناحيها..
تهبُّ طائرةً في المدى
أغنيتي.. أغنيةُ الحرية..

عندما أنهيتها راح مروان يردد : يالله ارحل يا بشار!

فقلت له مازحاً: لقد تحول الملعب الذي قتل فيه جارا إلى ملعب فيكتور جارا فهل سيحمل مكان في المدينة اسم القاشوش!

أياً كان الجواب فلا يهم طالما أن اسمه قد ارتبط بتلك الكلمات فأينما ذكرت ذكر هو دون منازع.. وإلا فماذا تعني المخاطرة بالروح والصوت

في بلاد يقضي الإنسان بدايات عمره يتعلم إخراج حروف الأبجدية ثم تتفنن السلطة الحاكمة بقطع تلك الحبال ماتبقى له من عمر..

- يا أستاذ ربما ولدنا بعد أحداث الثمانينيات ولكن صدقني فما رأيناه من أهوال خلال الفترة الماضية ربما كانت أكبر وأعظم.. يقول مروان.

- هناك نقاط تقاطع مشتركة ولكل زمان مقام وحالة مختلفة عن غيره..

- أبداً.. إعدامات جماعية وتصفيات جسدية ومداهمات وسرقات واستباحة للأعراض والممتلكات الشخصية ولكل شيء.

بعد أن أنهى جملته دخل شهم في نوبة ضحك لم تنتهي حتى نهره مروان فتوقف ليروي لنا ما أضحكه..

- لن أتحدث عن كل ماسبق سأروي حالة واحدة ربما تختزل المشهد كاملاً، في حارتنا إمرأة كسولة وبخيلة جداً حتى تكاد لا تتنفس كي لا تتعب جسدها وتخسر بعض الحريرات من قوتها، المهم هذه المرأة اسمها أم خالد وهي شحيحة حدّ الغيوم، منذ فترة دخل الجيش إلى الحارة وبدؤوا عملية اقتحام منظم للبيوت وقد سمعت بالأمر حيث كانت تطبخ مرقة فروج و فريكة، المهم من شدة خوفها على أساورها الذهبية ولرعبها المطلق من فكرة سرقتها قامت برميها في طنجرة المرقة ولكن عندما دخل الجنود إلى البيت قالوا لها ماذا تفعلين فردّت أنها تطبخ، فدخل أحد الجنود إلى المطبخ واستهزأ بها قائلاً: أنتم تأكلون

اللحمة ونحن في الشوارع كالكلاب لا نجد ما نأكل وبرغم كل توسلاتها أن تسكب لهم بعض الصحون إلا أن العسكري أصر على حمل الطنجرة كاملة والإنصراف بها، كادت أن تصيبها جلطة قلبية يومها وقد أخبرت أمي عن هذه الحادثة فجلست تبكي لأنها تذكرت أم زهير جارتهم عندما كانوا صغاراً في بيت جدي حيث حصل معها نفس الأمر في الثمانينات ولكن الإختلاف يكمن في..

أقاطعه:

- ماذا كان اسم جارتكم؟
- ليست جارتنا بل جارة أمي.. أم زهير..
- من جدك؟
- محمد اللبابيدي..
- انت ابن عائشة؟
- نعم.. كيف عرفت اسم أمي؟
- ناجي خالك؟
- بتعرف خالي ناجي؟!

أم زهير.. اسم اختزلته في ذاكرتي كأسماء الكتب التي قرأتها لشدة ما كان يردده ناجي فكلما كان يضع مالاً في مكان ما كان يقول: والله يا خوفي يصير فينا مثل ما صار بأم زهير.. وكان يروي لي نفس الحادثة بذات الشخصيات كلما اقتضى الأمر..

نهض شهم من جلسته واقفاً، احتضنني وكأنه يراني لأول مرة فهناك رابطة غائبة كانت تجمعنا، نقطة التقاء بيننا لم يكن يعرفها ولم أكن أعرفها أبداً، أوجدها القدر وضحكة مفاجئة أطلقها على غير وقتها.. وأصبح ناجي موضوع حديثنا.. وصار يناديني من لحظتها بالخال..

انتبهت وقتها لبعض تقاطيع وجهه، فانتبهت أنه بالفعل يشبه خاله كثيراً ولكني لم أنتبه لذلك قبلاً، في زحمة الحروب والأوجاع والثورات قد ينسى الإنسان شكل وجهه فهناك شعرات بيضاء قد تظهر على عجل دون أن تعطي صاحبها الفرصة لرؤيتها وقد تطول اللحية دون أن يكون هناك وقت لحلاقتها، في الحرب كما الحب حالة ثورية لا يمكن للإنسان أن يضبطها أو يمسك توقيتها الزمني كما يريد فكل شيء قد يدور على عجل وربما قد يسير ببطء شديد.. وكل الإحتمالات واردة.

إنها مصادفة رهيبة أن يكون هو ابن أخته لناجي ولكن لماذا أتوقف عند هذه التفاصيل إذا كانت لاتهم أحداً سواي، فالثورة كما قال مروان جعلت من كل العائلات عائلة واحدة، ومن كل قرابات الدم قرابة واحدة لاشيء يعيبها و يفسدها إلا الموقف من الثورة..

هذا الكلام دفعني لتذكر حديث جرى بيني وبين زياد في عمان قبل قدومي الأخير حيث قال لي إن السلطة الحاكمة تسعى لإشعال حرب طائفية في البلاد بينما قلت له إنه لا يسعى لحرب طائفية بل يركض نحو حرب أهلية شاملة، فالحرب الأهلية تقوم بين أخوين أحدهما معارض والآخر موالي بينما الحرب الطائفية تقوم على أساس الإنتماء الإثني

والمناطقي والفرق بينهما كبير وهذا ما أكده شهم من خلال سرده لبعض الحالات التي لم يعد العم يتواصل فيها مع أبناء أخيه لموقفهم من الثورة والخال من أبناء أخته والأب من أبناءه والجار من جيرانه..

يسألني عن ناجي وعن أخباره و أحواله و مغامراته.. فهو لم يره أبداً بل سمع عنه من خلال بعض الأحاديث المقتضبة التي كان يرويها أبوه أو أمه عنه أما أنا فقد كنت بمثابة الصندوق الأسود الذي وجده وسط غابة لإكتشاف خاله الذي لم يره يوماً..

عاد عبدالعزيز بعد كل هذه الحرائق، كل شيء بخير لنمضي، السيارة تمشي من جديد ومعمل الإسمنت الجديد على يميننا، بعض الآليات العسكرية المتواجدة حوله فيزيد عبدالعزيز من سرعته لنعبر كما الريح دون أن يوقفنا أحد.. يارب استرها معنا.. يارب ما لنا غيرك.. يا الله يا ستار.. يا ستار يا ستار.. الحمد لله صرنا بأمان.. كان هذا اختزال لبعض الكلمات التي انطلقت دون أي ترتيب..

في لحظة الضعف التي تنتاب الإنسان ويوقن فيها أنه ماضٍ إلى النهاية، يبحث عن أي مدخل للحياة وفي حالتهم كانت القوة الدينية هي المحرك وهي الحبل الذي يمسكهم بالحياة والشعرة التي تربطهم بالموت والجنة..

يزيد عبدالعزيز من سرعته والسيارة تخترق الهواء وتسابق الغيوم كحصان جامح مقبل مدبر معاً..

كانت الأصوات تتوقف تماماً مع انفراج الشمس وصعودها وهذا ما عرفته فيما بعد حين جلست في الزنزانة الإنفرادية وحدي، فجولات

التعذيب كانت تبدأ في التاسعة مساء وتنتهي مع بزوغ الضوء حيث يعود السجان لممارسة حياته الطبيعية، ينام ويأكل ويشرب ويمارس الجنس ويشتري ألعاباً لأولاده و يزور أرحامه. حالة غريبة حاولت مراراً أن أفهمها ولكني فشلت في تعريتها و تشريحها برغم كل قراءاتي وكل محاولاتي التحليلية والتركيبية، فقد وصلت إلى أن السجان شخص جبان لا يملك من القوة أي شيء إلا ما تم منحه من قبل أسياده لذلك تراه مسحوقاً في حياته الإجتماعية مذلولاً في بيته و علاقاته بينما يحاول فرض سطوته على من يقع تحت يديه، أمام الضابط في غرفة التحقيق مرة أخرى أقف لأقول له إني لست محمود السعيد وليأمر من جديد بسحبي إلى الغرفة في نهاية الممر الطويل، دخلت إلى الغرفة برفقتهم و قد كان قبلي طفل لا يتجاوز السادسة عشر من عمره غارقاً بدمائه!

- شو عم يعمل هالحشرة هون؟ شيلوا بسرعة.

كان من السهل جداً إطلاق الوصف على أي إنسان وهذه ثقافة متأصلة لديهم فقد أدركت ذلك منذ زمنٍ بعيد خلال خدمتي في التدريب الجامعي إذ كان الضابط في الطابور الصباحي يقول لنا تحفيزاً:

- إرفع رأسك يا واطي.. إعتز بنفسك يا ديوث.. شد حالك يا مرة..

وكنت أسأل نفسي يومها كيف لديوث وواطي أن يعتز بنفسه ويفخر بها!

في الغرفة دفعوني وضربوني بالأيدي والأرجل حتى تكومت على نفسي في زاويتها فوق دماء من كان قبلي منذ قليل فكيف لي أن أثبت لهم أني لست أنا، كيف لي أن أوضح ومعهم كل شيء ويريدون مني أن أقول من أين آتي بالسلاح وإلى أين أوصله وماهي الشبكة التي أتعامل معها؟!

حاولت أن أغيب عن الوعي لكن لعصيهم الكهربائية رأي آخر فهي تتفنن بلسعاتها على جانبيّ وأطرافي حتى أنتفض في مكاني أكثر من مرة، ثلاثين ثانية من الراحة و السكون ثم ينقض عليّ أحدهم يمسكني من رقبتي تكاد حنجرتي أن تخرج بيده، أشعر بأن حبالي الصوتية تتمدد بين أصابعه، أشعر بها تلتف حول الوسطى والخنصر والبنصر والسبابة بينما انشغلت الإبهام بالضغط على شرياني، إحساس بالفقد و الإتجاه نحو عالم آخر، يتركني بآخر لحظة للحياة، بين الموت والحياة هناك درجة واحدة و لحظة واحدة و شهقة واحدة و روح واحدة تأخذ تذكرة واحدة في رحلة واحدة وأخيرة..

كانت روحي ترحل وأغمض عيني رغم محاولة المري أن يخرج من بلعومي وارتجافي وإزبادي بين يديهم، أتكور على نفسي فيركلني أحدهم بقدمه على بطني و فخذي و رقبتي فيصطدم رأسي بالحائط الجانبي، فتدور الدنيا وأبقى مكاني وهم مكانهم لا يغير ما بهم شيئاً.

أشعر بارتطام رأسي فأفز مكاني في السيارة كنائم فاق مذعوراً لشعوره بسقوط قوي مفاجئ إلى هاوية ساحقة المدى والبعد.

عندما يتملك الخوف حياة الإنسان تتلوث تفاصيله و مواهبه ومواقفه و مبادئه، فالخوف يصبح هو الحارس الشخصي لكل تصرف، لكل فاصل موسيقي، لكل ملحمة مسرحية، تغدو الملاحم نصف ملاحم وتغدو الحياة نصف حياة وتغدو الثورة نصف ثورة ويغدو الحب نصف حب و يغدو الطموح نصف طموح فالخوف هو عدو الحياة، كنت أعي تلك الفكرة تماماً لذلك كنت أعمد على رفض الخوف وطرده من قلبي و من كياني و الذي ساعدني على ذلك ما رأيته من مشاهد بطولية ممن رافقوني خلال رحلتي..

كان عبدالعزيز يزيد من سرعته بينما حاول شهم أن يجرني للحديث أكثر عن خاله ناجي فعادت صورته وكأنه يجلس بيننا في المقعد الخلفي فرحت أروي له عن مغامراته العشقية والكتابية.. كنت أفخر عندما أقول له ناجي صديقي.. بل ناجي أخي الذي لم تلده أمي..

بعض البيوت المترامية الأطراف على جانب الطريق الزراعي الأيمن، تبدو كأنها فارغة خاوية على عروشها فأسأل عنها ليقولوا لي إنها كانت لعائلات نزحت منها قبل اجتياح المدينة وهربت إلى الريف حيث بعض القرى ما زالت آمنة أو على الأقل ليس فيها ما يهدد كما المدينة، رجوتهم أن يتوقفوا حتى نراها وأمام إصراري ما كان من عبدالعزيز إلا أن حرف مقود السيارة يميناً وأدخلها ضمن بيتين و نزلنا نراها..

صرخات الأطفال المدوية التي كانت هنا اختفت ولكن هديرها ما زال يسكن حبات الهواء وكأني أسمع صداها و رجعها، قصص الحب

التي ارتسمت يوماً هنا مازالت آثارها مرسومة على حائط شبه متهدم اختفى منه القلب وأحد الحرفين مع بقاء السهم والحرف الآخر ثابتاً لا يتزحزح وكأنها قصة حب من طرف واحد تدمرت عند مرور أول دبابة.

ألج إلى البيت الأول الذي قاربني و قاربته بحكم الجغرافية فرأيت حجم الخراب والدمار الذي حلّ به، بعض جدرانه تكسّرت وتم فتحها على غرف أخرى، الملابس المنثورة من الخزانة على الأرض تتوزع فوق بعضها البعض، قطع داخلية لشابات غادرن المكان وألعاب أطفال لأولاد لم يلعبوا بها وبعض أدوات الحلاقة التي أصابها الصدأ، مرآة متكسرة، أواني مطبخية وبقايا طعام فأقول في خاطري:

ربما لم يكن لهم فرصة تناول الطعام و جمع الأغراض، في هذا البيت تجلس الأحلام وتختبئ النوايا والصلوات والصور عن عالم متكامل لا ينتهي، صراخ ودموع حزن وفرح وضحكات وهمسات وبوح دفين ومشاهد انتصار ونجاح وانكسار اختزلته هذه الحيطان بين حجارتها، بعض البيوت أسرارها أكبر منها فهي تنوء بحمل الأسرار..

يصرخ لي مروان لابد أن نسير فالمكان هنا ليس آمناً اطلاقاً وبخروجي لمحت بقايا دراجة هوائية وأخرى نارية متفحمة، مع صعودي في السيارة من جديد رحل خيالي إلى بيت والدي القديم ففي صيف عام 1996م أحضر والدي دراجتين هوائيتين احداهما لي بإعتباري الإبن الأكبر والأخرى لأخي شادي الذي يصغرني بعامين، شادي كان شديد الإعتناء بدراجته الزرقاء بينما أنا كنت مهملاً لدراجتي الحمراء وهذا ما أدى إلى

تلفها مبكراً بينما صمدت دراجة شادي ما يقارب ستة سنوات أو أكثر من ذلك بقليل، قفز إلى خاطري عندما كنت أختلس لحظة من الزمن لأركب دراجته دون أن يراني لعلها تخرب وتتعطل كدراجتي فنصبح في عقوبة أمي سواء. ينتبه شهم إلى ابتسامتي فيسألني:

- لماذا تضحك يا خال..

- أبداً يا خال.. تذكرت دراجتي عندما كنت صغيراً، كانت كتلك الدراجة التي رأيتها عند باب البيت، تشبهها إلى حد ما، ربما هي لطفل متعلق بها جداً ولم يكن يتخيل أنه سيبعد عنها، فأي قوة دفعته إلى تركها هكذا عرضة لكل شيء، أسأل نفسي كم من الأطفال تقاتل عليها ولأجلها، وها هي مرمية دون أي اهتمام، بعض الأشياء لا تشعر بقيمتها إلا عندما تذهب من بين يديك.. في الحياة يا خال هناك اتجاهان كما الحب تماماً فقد تواجه إمرأة تعطيها كل شيء وتكون مستعداً للإستغناء عن كل شيء في سبيل عينيها وللحصول عليها ولكن القدر لا يعطيك ما تتمنى وهناك من تعطيك كل شيء وتبني لك قصوراً لتسكنها ولكنك تعاملها بجمود مطلق بحجة واحدة هي أنك فقدت الثقة في كل شيء.. حالك هنا يشبه الطفل صاحب الدراجة الذي فقد دراجته التي تعلق بها فهل من الممكن أن يتعلق بأمر آخر على الأقل في المستقبل القريب..

كان الجميع يستمع لي وكأنني أعطيهم من حكم الحياة وآدابها بينما أنا دخلت في ضحكة مجلجلة راوياً لهم ماجرى مع ناجي ذات مرة في المقهى!

كانت أصوات الرصاص لا تتوقف اطلاقاً، من مكان بعيد هناك أصوات ودخان وعندما سألتهم عنها قال لي مروان:

- إنها ثمن الحرية.. مهرها غالٍ جداً، مستقبلنا ومستقبل بلادنا قادم إلينا، إنه أبيض اللون ثمنه دم واستشهاد واشتباكات مريرة صعبة علينا جميعاً..

في الحقيقة لم أجد ما أرد عليه أمام اصراره وقوة عزيمته وصلابة موقفه، مع دخولنا إلى حماه كان شهم مصراً أن يأخذني لبيت أهله كي ارى والدته ولكني فضلت البقاء بينهم حتى أكمل ما أتيت من أجله فهناك الكثير الذي من الممكن انجازه سريعاً..

في حماه اختلف إحساسي تماماً مع يقيني المطلق أن البلاد الواقعة بين درعا جنوباً والقامشلي شمالاً وتمتد بين شط المتوسط غرباً حتى البوكمال شرقاً هي امتدادي الجغرافي الذي أعشقه وأنتمي إليه ولكني في حماه إنسان آخر، فهنا أهلي وإخوتي، جذوري، لغتي وحبيباتي وقصص عشقي وهنا لي أكثر ما لهم فلست غريباً، لحماه كما معظم المدن السورية حضور خاص بين كل مدن العالم، ذهب عمر وشهم لقضاء بعض أمورهم ومشينا أنا وعبدالعزيز حيث وعدني بأخذي إلى مقر الصقور كما كان يسميهم..

على كتف العاصي مباشرة مقابلاً لقلعة حماه التاريخية إلى الأسفل قليلاً وعلى الضفة الأخرى من منطقة المدينة التي يقطنها إخوتنا النصارى، من جانب الجسر ننحدر قليلاً لنلامس المياه تقريباً ثم لنسير بمحاذاتها ومقام

شاعر النبي صلى الله عليه وسلم على يسارنا، حيث ينام التاريخ برمته ناظراً للحاضر والمستقبل، مائتي متر تقريباً ثم ننحرف يميناً حتى نصل لورشة أبو عمر.. كنت أعرفها قبل سفري وهي كما تركتها تستمتع جدرانها بصوت العاصي وبترجيع صدى الناعورة البعيدة، كانت ورشة هنا وتحولت إلى مخزن للأسلحة يحرسه بعض الشباب الذين عرفت بعضهم واستعصى على ذاكرتي البعض الآخر، من أعرفه رأيته قد صار أكثر طولاً وأكثر ارتفاعاً وكأن الثورة بهذه القامة والإشراقة جعلت منه إنساناً آخراً، يحملون بعض البنادق والقاذفات لينتقلوا بها إلى أحد المباني التابعة لجمعية سكنية كان يجري العمل على إنشائها، ولمعرفتهم السابقة بي سمحوا لي بتصويرهم سريعاً وتحركنا سوياً للمقر..

سوزوكي بيضاء مكتوب عليها "لا تلحقني عايف حالي"، كانت وسيلتنا للتنقل ضمن المدينة وذلك لسببين كما قالوا لي، الأول أن التحرك بها سهل فهي لا تلفت الأنظار وفي حال تم توقيفها فإن الهرب منها أكثر سهولة من السيارات الأخرى فضلاً عن قيمتها المادية المتدنية فهي لا تمثل عبئاً على الثورة..

ظهرنا للمخيم الفلسطيني، وفي فلسطين التاريخية هناك من يئن على سوريا، و من جانب فندق أفاميا الشام الذي أقيم فوق منطقة الكيلانية حيث حدثت مجزرة رهيبة عام 1982م، نمر كالذكرى متجهين فوق الجسر وقبل أن نصل للشارع المحيط بالقلعة الكبيرة ننحرف يساراً لندخل تحت سقف قديم حيث توقفت السوزوكي وعادت أدراجها

وأكملنا طريقنا مشياً من جانب معهد السلطان والحمام العثماني والمتحف القديم الذي تولى حراسته ثلاثة شبان من أبناء الحارة حرصاً على إرثهم الثقافي والحضاري من النهب والسرقة، نصل للناعورة الكبيرة حيث خلفها مباشرة تقع ورشة الترميم الخاصة بها والتي تحولت إلى خلية عمل دؤوب على كل الأصعدة وهناك تعرفت على باقي عناصر المجموعة كاملين حيث عرفهم عليّ الشيخ عبدالعزيز كما كانوا ينادوه..

مصطفى..

أشقر الشعر، أبيض الوجه، طويل القامة، حسن الطالع والخلق، دمث الكلام، هناك نور في وجهه، لاتجلس معه إلا و تحبه، طالب في كلية الهندسة الكهربائية، تم اعتقاله في جامعة حلب بتهمة تحقير رئيس الدولة وبعد أن رأى ما رأى داخل السجن تم الإفراج عنه بعد أن قام بالتوقيع على تعهد بعدم المساس بهيبة الدولة وشخص الرئيس قولاً وفعلاً وما إن خرج حتى إلتحق بالعمل المسلح منخرطاً في إحدى الكتائب المقاومة ولحسن سلوكه وإلتزامه التام بالأوامر و لرفعة أخلاقه، سريعاً ما ترقى لقيادة المجموعة بعد أن استشهد زميله السابق الذي كان يقودها في أحد المهمات التي كان يقوم بها..

في بدايات الحديث معه كان عن الجروح التي تلقتها مدينة حماه خلال العصر الحديث بدءاً من عهد أمين الحافظ مروراً بفترة حكم حافظ الأسد وانتهاءً بحكم ابنه، فوجئت خلال الكلام أن هناك قرابة بعيدة

تجمعني معه من طرف جدته لأمه وقد عرفت ذلك عندما تحدث عن أحد المفقودين من عائلته، نصف ساعة من الحديث كانت كافية ليبدأ بالحديث عن الأحوال الجارية وعن زهرات حماه من الشباب الذين استشهدوا حتى وصل إلى ذكره خلال حديثه عن بعض الملاحم البطولية، كان هو رغم أني حاولت مراراً أن أهرب من لحظة نطقه للاسم إلا أن الكلام ساقه للبوح على ضفاف العاصي..

في ليلة مقمرة قد غاب فيها كل شيء أخذ قراراً بالخروج إلى الريف الصامد ليستطلع الأحوال هناك وللإتفاق على بعض الترتيبات الخاصة باستقدام السلاح وتأمين الغذاء والخبز وبرغم الممانعة والمقاومة التي لقيها للخروج إلا أنه أصر على المضي فيما عزم، جميعنا تخاذلنا عن الذهاب معه، ركب سيارة البيك آب ومعه اثنان فقط وبعد ثماني ساعات أو أكثر جاء نبأ استشهاده في السقيلبية حيث اصطاده حاجز طيار بعدة رصاصات. لقد روى لي السائق الذي استطاع الفرار أنه رفض الإنسحاب بعد أن تفاجأ بوجود الحاجز أمامه حيث استل سلاحه وباشر برمي الرصاص، واقفاً كالأشجار مات، واقفاً كالسنديان باسقاً كالسرو عالياً كالغيم أمام أعدائه، لقد انتصر برغم موته ونحن لم نعلن الحداد.. إنه يرانا ويسمعنا الآن عند مليك مقتدر وسط أنهار الخمر واللبن والعسل وفي أحضان الحور العين.

أمام إبتسامته وقفت مذهولاً لأسأل نفسي إن كان يقصد نبهان.. لا أريد أن أوجه السؤال مباشرة فأبحث عن طريقة موارية لطرح تساؤلاتي؟

- كم كان عمره؟
- إنه يقارب الثلاثين..
- هل كان متزوجاً؟
- متزوج من إمرأة أخيه الذي استشهد في العراق.. وقد كان يرعى أبناءه كما لو كانوا من صلبه..

لا داعي لأن أتأكد أنه هو.. فكل الإشارات تدل أنه هو ولا أحد غيره.. وسط دموعي أطلب ورقة بيضاء وقلماً فيعطوني ما أريد و أبدأ بنعيه على طريقتي:

هل يكفي أن تتناقل خبر رحيلك كل مواقع الانترنت وأغلب وكالات الأنباء، هل يكفي أن يعرف كل الناس عبر كل الوسائل أنك رحلت، أم هل يكفيك أن نضع إلى جانب اسمك في كل مرة يتم ذكرك فيها، كلمات الترحم وطلب المغفرة من الله لروحك وأنت الذي تمنيت الرحيل منذ سنوات طوال، كنت أعرفك جيداً و كنت تعرفني، و ابتعدنا أو لنقل افترقنا بحكم الزمن والجغرافيا ولكنك اليوم رافقتني منذ الصباح في كل الأمكنة و الدقائق والثواني، استرجعت رائحة المسك الذي كنت تحمله دوماً واستنزفت ذاكرتي لأتخيل طول السواك الذي كنت تخفيه في جيبك العلوي، داعبت حبالك الصوتية طبلة أذني وأنت

تردد كما كنت تفعل دوماً حين كنا نجلس معاً في أماكن أنت تعرفها جيداً وتفضل كما عرفت عنك أن تحتفظ بها لنفسك ولنفسي ولنفس من كان يجلس معنا.

سنخوض معاركنا معهم وسنمضي جموعاً نردعهم ونعيد الحق المغتصبَ و بكل القوة نردعهم.. لن نرضى بشبر محتل لن نترك متراً للذل ستمور الأرض وتحرقهم في الأرض براكين تغلى.. في الأرض براكين تغلى..

في تلك اللحظات شددت على يدي و همست في أذني.. سنكون هناك.. سنكون هناك لا تقلق.. بل أنا قلق جداً فاسمح لي اليوم في صمت غيابك وفجيعتى بك أن أعيد ترتيب أفكاري لأستعد لتشييعك على طريقتى أيها الأخ الذي عرفت وأحببت.. إسمح لي أن أكرر لك عباراتٍ كنت تحب أن تسمعها وقصصاً لم أروها أبداً لغيرك عن تفاصيل كانت تحدث وحدثت معى في مرحلة ما من حياتنا جمعتنا وانتهت ولكنها ظلت عالقة فينا لا تفارقنا أبداً.. أتذكر أيها الشهيد حين رأيتك في كرم الزيتون في جهة ما من بلدنا وقلت لك لقد طلبوني في الفرع كذا فقلت لي لا تقلق سيسألوك عن كذا وكذا وكذا.. هم جبناء.. حقاً إنهم جبناء و أنت تعرفهم جيداً..

منذ أن انطلقت شرارة شمس الحرية فوق سماء بلادي كنت أول من تقدم.. وكنت أنا أرقب مقاطع الفيديو المسربة إما لأراك وأنت تنظف الشوارع قبل وبعد التظاهر لتثبت للعالم أجمع أن المظاهرات على درجة

عاليه من التحضر والتمدن.. أو كنت أتمتع بسماع صوتك وأنت تـردد.. سيسقط.. سيسقط.. سيسقط.. تكبير.. تكبير.. تكبير..

اليوم يا نبهان أستطيع أن أقول لـك ولطيفـك الـذي لم يفـارقني منـذ سمعت نبأ اغتيالك: الله أكبر.. الله أكبر كيف اغتالوا القمـح في عيونـك وكيف اغتالوا رائحة الزيتون من جسدك.. نم قريق العين هانيها.. فأنت حرٌّ وحرٌّ وحرٌّ وحرٌّ..

الشمس تقارب على المغيب، وصمت الجميع في هذا المكان يـستفزني، غاب كل شيء ولم يغب مجد هذه المدينة، يكـاد الحـزن يمزقنـي ويقتلنـي ويحيلني جندياً دون أن أدري، في تلك اللحظة سيطرت عليّ رغبـة حمـل السلاح والإنضمام لهـم، اسـتطعت أن أفهـم كيـف لإنـسان أن يتحـول بلحظة واحدة إلى مقاتل دون أن يدري..

حين كنت خارج هذه اللعبة أو على الأقل أراقبها كـما الآلاف غـيري كنت مثلهم أدعو للحفاظ على السلمية ولكن كيـف لمفجـوع أن يلتـزم النضال السلمي أمام الفقد، وللفقد هنا لون آخر ونكهة أخرى كما طعم القهوة المرة، فقدٌ ممزوج بالألم والموت والحياة والدعاء والـصلاة والبكـاء والنحيب و الوله والإشياق، فقدٌ ليس كانفـصال حبيبـين ولا اجهـاض امرأة أو موت طفل.. فقد ليس له شبيه، فكيف لرجل بحجـم نبهـان أن ينسى..

بعد فترة بسيطة سأعلم من أحد الأشخاص قصة أخرى لموت نبهـان حيث تمحورت روايته حول أن الشهيد كان يركب في البيـك آب عنـدما

أوقفه حاجز مدني ولّما عرفوا هويته طلبوا منه أن يذهب معهم وقد ظن نبهان أن الشباب من الجيش الحر فمضى معهم دون أدنى شك حتى دلف إلى غرفة صغيرة وكان قد وقع في الفخ دون أن يدري، في الغرفة شباك خلفى قفز منه اثنان وبقى نبهان يشاغل الجنود بعد أن رأى على الحائط عبارة تدل على انتماء المكان وأصحابه، فتح النار ومعها فتحت الجنة أبوابها لإستقباله..

أياً كانت الروايات فالرجل قد فقدناه وانتهى الأمر..

خالد..

استوقفنى هذا الرجل بين الجميع كان لديه كاريزما كما يمكن تسميتها في كتب السياسة وهى أمر لا يمكن أن يتم شرحه بل يتم ادراكه فوراً، بسلاحه يجلس ويمشى وينام رافضاً كل هذا العنف الذي داهم المدينة فجأة، ربما أربعون دقيقة كانت كافية ليقص علىّ كيف حارب في العراق إلى جانب آلاف العرب الذين انتفضوا ضد الغزو الأخير وكيف تم اعتقاله من قبل قوات التحالف وتسليمه بعد ذلك بعام للقوات العراقية التى أطلقت سراحه في العاصمة بغداد لينطلق إلى كراجات العلاوي حيث حاول أن يستقل سيارة أجرة ذاهباً للحدود السورية بدون أوراق ثبوتية حيث اعتقله حاجز للشرطة العراقية مرة أخرى ولأن الضابط من الأنبار قد تفهّم الأمر وأطلق سراحه مرة أخرى وقد أقسم لي

لو كان ذلك الضابط من النجف الأشلاف أو البصرة أو كربلاء لكان قام بتصفيته وقتله دون الرجوع لأحد، خالد فلسطيني من مخيم فلسطين، ولد في حماه وعاش فيها وتعلم في مدارسها وعمل في دوائرها واستنشق هواءها وتزوج منها و ظلَّ اسمه خالد الفلسطيني، مفارقة أخرى أتوقف عندها في قصته تلك عندما تم إطلاق سراحه من قبل الضابط الأنباري حيث اتجه مباشرة إلى القائم بأعمال السفارة السورية في بغداد ووقتها لم يتم افتتاح سفارة بعد بل كان القائم بالأعمال يحتل مكتباً في قلب الممثلية الجزائرية التى افتتحت سفارة لها في العاصمة العراقية بوقت مبكر، حيث رفض الدبلوماسي السوري استقباله أو مساعدته بحجة أنه فلسطيني وليس لديه أوراق ثبوتية فقام خالد باللجوء إلى السفارة الفلسطينية حيث ساعده القائم بالأعمال هناك عبر التواصل مع الأمم المتحدة والصليب الأحمر الدولي والأونروا لتتم إعادته بعد ثلاثة شهور من حريته إلى بلاد الأمويين عبر مرافق من الصليب الأحمر، وهو ذات الشخص الذي انطلق لخوض معركة التحرير كما كان يسميها في مخيم النهر البارد في لبنان بعد ذلك بسنوات معدودة وهو الآن يخوض أعظم معاركه في طريق عودته ليافا.. فتحرير فلسطين يمر من عواصم بلاد الشام كما كان يقول.. لم أره إلا أربعين دقيقة فهل ما يقارب ثلاثة أرباع الساعة كافية لإضرام كل الحرائق في الذاكرة؟!

الوضع الأمني سيء جداً ليلاً، هكذا قال شهم وهو يقنعني بالذهاب إلى بيت أهله كي أنام هناك قبل أن أتجه لبيت أهلي في طيبة الإمام، وتحت

إصرار الموجودين هنا وافقت على مضض، فالنهار له عيون كما قالوا، نمشي حتى جامع السلطان ومنه يساراً إلى قلعة حماه حيث فاضت ذكرياتي هناك ولكنى حاولت جاهداً أن أجعلها تنام كما الليل يرخى أطرافه على كل شيء، نعبر الجسر ومنه إلى شارع الأربعين حيث صار جامع عمر بن الخطاب على يسارنا و مبنى الهجرة والجوازات على يميننا ونصف حماه بات خلفنا..

وقت المغيب في حماه نكهة مختلفة، كذلك الصمت نكهة أخرى في مدينة احترفت الحزن والصمت على غياب أبنائها طيلة ثلاثة عقود، كنا نعبر الطريق - بعد أن تركنا السيارة البيضاء- مشياً على الأقدام، وبدأت أقدامى تسير لوحدها فهذه المنطقة أعرفها عن ظهر قلب ولا أحتاج فيها لدليل، بل حتى لا أحتاج أن أفتح عيناي لأندل المسير فهنا مسقط قلبى..

كحصان يمشي على دروب عرفَها جيداً واختزل مطباتها كنت أمشي بينما كان شهم يروي لي عن المجازر التى حصلت في المشاع وحى الأربعين وقد اختزلت أمامى كل ملاحم عشقى وحبى ونظري متوجه دوماً إلى جانب النصب التذكاري أمامنا حيث كنت أقف دائماً أنتظرها كى تطل علىّ لتعطينى إشعاراً بالحياة.. صرت أقول في هذه اللحظة كان بيتها هنا وكانت تطل علىّ من هناك واليوم تطل علينا جميعاً من السماء.. روحها حاضرة كما المدينة تماماً بكل تشوهها ونضارتها ودمارها وكأنها أنثى مغتصبة تقص ضفائرها أمام كل العيون لغياب الرجال في القبيلة..

أسكت قليلاً ثم أقول له:

ياصديقى ماحدث في حماه جزء من الحقيقة والخافي أعظم.

- كان هناك بناية على ما أذكر؟

- نعم كان.. لقد أصابتها قذيفة من دبابة كانت تتمركز عند مشفى الحوراني؟

- ماذا حدث للعائلات التى كانت تسكنها؟

- أغلبهم استشهدوا وقِسم لا نعرف أين هم الآن..

حاولت أمام الفجيعة أن أخفى إصراري على معرفة مصيرها ومصير عائلتها، رغم الألم أحياناً نصبح نكترث بكل شيء كى لا نشير إلى ما يؤلمنا..

جانب مبنى البريد القديم مباشرة وعلى الحائط المحاذي له كانت تطل على الأرض من ارتفاع لتعطينى إشعاراً بالحياة حيث كنت أقف رانياً لها، حريصاً كى لا ينتبه لي أحد شبان الحارة، ففى حماه الحب يعادل السرقة وربما القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد..

لا بناية هناك.. في الحقيقة لم أكن أتوقع هكذا سيناريو فقد رافقتنى قصة عشقها في حمص التى تشبه اسمها إلى حد كبير في تركيبها اللغوي وظلت تحاصرني رغم ابتعادي ورغم شعوري أني تخلصت منها للأبد، ولكنى أنتبه الآن أن لا أبد في هذه البلاد إطلاقاً فقد فاحت رائحتها العطرة عندما وصلت إلى مكان جمع عيوننا على قارعة طريق، نعم كنت أحبها فأين هى اليوم حتى أقول لها ماذا فعلت بي السنون وكيف رسمت الغربة على وجهي معالم قاسية كهذا الزمن الصعب، سأقول لها أني أتيت

لأجل عينيها وليس لشيء آخر، فلكل أنثى أحببتها حصة في القلب ومكان لا ينمحى إلا بالموت..

كنت أرفض فكرة موتها رغم يقيني بقضاء الله وقدره وأن الأعمار كما الحياة بيد الله وحده إلا أني كنت أعزي خاطري بقولي: لابد أن تكون بخير رغم كل الدمار..

- هل كان كل قاطني هذه العمارة فيها حين تم ضربها؟
- أغلبهم.. ولكن لماذا تصر على معرفة ما حلّ بهم؟
- لا أبداً.. فقد أثارني المشهد.. وتذكرت تلك البيوت التى رأينها على مدخل حماه.. فلكل بيت قصة ولكل غرفة فيه قصتان..

كنا نتجه فوراً قبالته حيث يقع بيت أهله، بناية تتألف من ثلاثة طوابق ومدخل صغير يختصر الحالة الإقتصادية التى يعيشها سكان هذه البناية، نرتقي الدرج وما إن نصل حتى تفتح أمه الباب..

أقف أمامها تماماً كما وقفت أمام ناجى أول مرة، يتشابه الأخوة كثيراً برغم اختلاف جنسهم فهناك تقاطيع في الوجه تجعل الناظر يدرك تماماً أن هناك علاقة دم بين طرفين لا يعرف أحدهما.. كما كل الأمهات و الأخوات سألت بلهفة وحرقة بينما ذرفت دموعاً عديدة مريرة أليمة وهى تروي بقية القصة التى لم يروها لي ناجى، وكيف أن أخته تزوجت قبل الأحداث بفترة قصيرة وانتقلت مع زوجها إلى حلب ووقعت الأحداث وفور انتهائها عادت دون أن تجد أحداً من أهلها.. فسلمّت

أمرها لله بأن الجميع قضى نحبه حتى فاجأها احد معارفهم بخبر عن ناجى منذ ست سنوات أو أكثر..

- سامحنى يا ابنى.. أكيد أنت جائع وتعبان..

في الحقيقة لم أكن جائعاً إلا لمعرفة أخبارها، لم أكن تعباً من الركض طيلة آلاف الكيلومترات التى قطعتها كى أصل إلى أعتاب بيتها، ومع محاولاتي الفاشلة بإجترارهم للحديث عن أهلها إلا أني فشلت، ولكى لا أثير فضولهم قررت عدم الخوض في أسئلة سوى الأسئلة العامة عن الحياة والأوضاع والظروف..

لليل في هذه المدينة أسرار كما كل المدن العربية، فيها ينام الخوف وينهض الموت من استراحة المحارب، في كل الزوايا هناك قدر منتظر لصاحبه وهناك ورقة تنتظر مالكها كى يأتي، أحاول أن أطل من شباك الغرفة التى أوصلنى إليها شهم كى أنام على الشارع علّنى أرى في سواد الليل بعض بقايا بيتها وكلمات أم شهم ما زالت ترن في مسمعى:

- أرض هذه البلاد لا تهان يا ابنى..

أصوات الرصاص عادت لتقلع من جديد وكأنها تنتظر إشارة الصفر من الشمس حين تغيب كاملاً ويهجم السواد على هذه المدينة، حاولت أن أستلقى على ظهري وماهى إلا لحظات حتى مضيت في نوم عميق، صار هناك تصالح بين الرصاص والنوم، بين القلق والنوم، بين التوتر والنوم.. صار النوم يأتي رغم كلّ ظروف..

في حلمي أتتني هي في زيارة خاطفة داخل غرفة التحقيق الفارغة إلا مني حيث أعطوني بعض الأوراق لأكتب عليها كل ما أعرفه وليكتبوا هم ما يعرفوه، وضعتها في قلب الخزانة الصغيرة حين شعرت أن الضابط سيدخل بعد قليل ليبدأ نوبة تحقيق جديدة بعد أن صرت مصراً أكثر على أني قادم من دمشق ولست من خارج البلاد وأنّ هناك لبساً ما لابد أن يتبيّن لهم..

أمر الضابط جنوده بسحبي بعد أن رن هاتف المكتب وطلب منه الطرف الآخر الحضور على عجل أما أنا فلم يكن لدي هناك من أعده أني قادم سوى تلك الفئران الهزيلة التي تسكن معي في زنزانتي الإنفرادية، بعض الأدراج وممر طويل مظلم تتوزع على أطرافه بعض الأبواب الحديدية المرتفعة بضع سنتيمترات عن أرضية الممر، استطعت رؤية بعض الأقدام في داخلها وهم يسحبوني على الأرض من قدمي، كان ارتطام رأسي ببلاط الممر كلسعة الكهرباء عندما تمر في الجسد، يفتح الرجل باب الزنزانة رقم 13 و يرميني بها بعد أن فكّ القيود من يدي و رمى بصحن فارغ من الألمنيوم بجانبي، انتبهت فوراً إلى وجود سطل أحمر اللون في زاوية الغرفة فأدركت فوراً أنه لقضاء الحاجة، ست ساعات أو أكثر دون أن يتكلم معي أحد ومع محاولات النوم الفاشلة بقيت متقوقعاً على نفسي في الزاوية منتظراً القدر فصرت أطلب منهم أن يقتلوني..

في آخر الليل ثمة صوت خافت يأتي من الزاوية المجاورة لزاويتي، صوت ترتيل بعض آيات القرآن، صوت عذب يريح النفس والوجدان، كدت أخاله سراباً لولا أني أصغيت وقرعت على الحائط عدة مرات حتى أجابني الصوت وسط غفلة الحارس الذي انشغل بداية الممر بحديث مع رفيق له..

- كنت أدعو لك وأنت تصرخ!

- فاجأني الصوت ولكني عزمت على الحديث معه.. من أنت؟

- أنا اسمي: وسيم المحمد.. من بابا عمرو..

- كم لك من الوقت هنا؟

- منذ فترة.. لم أعد الأيام فهنا لا نعرف متى تشرق الشمس ولا متى أو تغيب، فعندما تتوقف صرخات المعتقلين نعرف أن الشمس قد طلعت..

- لماذا أنت معتقل؟

- اسمعني جيداً، أرجوك إذا قدّر الله لك وخرجت من هنا، اتصل على هذا الرقم ثم أطلب أخي وأبلغه أني بخير!

أصعب الأمانات هي التي تعطى في السجن، وأصعب الوعود هي التي تقطع في السجن، وأقوى المواثيق هي التي تكون في السجن، للسجن حالة اعتبارية صرفة لا يمكن أن يدركها إلا من فقد حريته خلف القضبان أو تمت مصادرتها منه عنوة بأمر القانون والأوامر العرفية.

وسيم أتى إلى هنا منذ أسبوع تقريباً كما أخبرني بعد ذلك وعندما عرفته بنفسي قال لي إني أعرف قريباً لك كان في طريقه إلى تركيا حيث كنت مكلفاً بإيصال عائلة إلى الحدود!

كان عليّ أن أتقلب في فرشتي أكثر فليس لدي القدرة على معرفة ماذا حل بها هي المختبأة بأمر الحلم داخل خزانة الأوراق الصغيرة، فكيف لأصابعها أن تتحرك لتعزف على أوتار قلبي وكيف لضفائر شعرها الحمراء كما تخيلتها يوماً أن تنطلق على وجنتي إلى جانب الناعورة الكبيرة عندها انطلقت إلى باب الزنزانة من قوقعتي محاولاً فتح الغلاقة العليا بادئاً بالصراخ عليهم: يا كلاب.. يا كلاب.. يا كلاب..

أفيق مذعوراً لأرى شهم فوق رأسي وأنا أصرخ يا كلاب يا كلاب، كان بيده كوب من الماء وهو يقول لي: كابوس.. كابوس.. كابوس.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

ما إن انتهى من كلمته حتى انطلقت أصوات الرصاص وقد كانت قريبة جداً من البيت مع سماع دوي انفجارات كادت أن تسقط زجاج الشباك المطل عليها، تتسارع الأرجل والأذهان إلى صالون البيت والكل خرج من غرفته بينما أطلت أمه علينا وهي تضع غطاء الصلاة الأبيض قائلة:

- يالله ننزل على القبو.. بسرعة ماما خبرو الجيران..

انطلق شهم يطرق الأبواب في كل الطوابق بينما انشغلت مع أمه في جمع بعض الأشياء الضرورية كعلب الماء والخبز وبعض أقراص الجبنة خشية أن يجوع أحد الأطفال في الملجأ.

ننزل على الدرج مرة أخرى بسرعة قصوى خشية الموت الذي داهم كل شيء على عجل، لابد أن نهرب من الموت، لابد أن نعيش حتى نرى ما يحدث، لابد أن أعيش كي أصلي عليها صلاة الغائب وكي أزور قبر نبهان وأتلو عليه ما تيسر لي من سورة ياسين..

الظلام الدامس يطبق على المكان وأصوات الاستغفار تعلو من كل الأفواه، أطفال وبنات صغار وشابات وأمهات و شباب ورجال ومصاحف وبعض علب المياه وأصوات الإنفجارات تقترب والرصاص في كل مكان..

- يا الله خربوا البلد..
- يا رب استرنا..
- يا لطيف..

كلمات تنطلق من كل مكان عندما قررت أن أخرج للشارع كي أرى ما يحدث، وقفت فسألتني أخت ناجي:

- أين ذاهب؟
- إلى الشارع..
- لا ما تطلع.. الوضع صعب والموت في كل مكان..

تتدخل جارتها فتقول:

- يا ابنى لا تطلع.. لا ينقصنا فجائع جديدة، ثم تلتفت إلى جارتها لتسألها عنى فهى لأول مرة تشاهدني هنا؟

- هذا صديق ناجى أخى..

ما إن عرفت اسمى حتى سألتنى عن ابن عمى الذي يصغرني بست سنوات أو أكثر، قلت لها إنه ابن عمى ولكنى منذ زمن طويل لم آتي إلى البلد وأخبار الجميع مقطوعة عنى، فقالت لي والدموع تخنقها:

- تعال بجانبى وأنا سأخبرك؟

تفاجأت بقولها ولكنى اقتربت منها لأسمع ما ستقول فبدأت الحديث وفي حضنها طفل لم يتجاوز الأربعة أشهر الأولى:

ابن عمك كان زوج ابنتى راما التى قتلت منذ ثلاثة أشهر وهى في غرفتها في الطابق الثاني.

تجمّدت تماماً وكأن صاعقة نزلت على رأسى فقسمتنى قسمين، كيف ماتت، حالة الوجوم على وجوه الجميع بلا استثناء، كيف لقرار جاء تحت الضغط بأن أنام هنا أن يأتي بي لمعرفة أخبار عائلتى، كانت راما ترضع ابنها عندما سمعت أصواتاً في الشارع المقابل لبيتنا فبادرت إلى إغلاق نافذة غرفتها بعد أن وضعت طفلها على السرير واطمأنت أنه خلد للنوم رغم كل شيء ومع محاولتها الأخيرة بالإقتراب من النافذة من خلف السواتر القماشية داهمتها رصاصة قناص كان في البناء المقابل لقدرها حيث انفتح رأسها شلالاً من الدماء وانصبغ لون الغرفة البيضاء بآثار دمها. بدم بارد قتلت راما و بقي ابنها بلا أم، فأي أوضاع صرنا فيها

حتى تموت الأم ذات العشرين عاماً ويبقى طفلها ذي الأربع شهور... لا إله إلا الله.. اللهم لا إعتراض على حكمك..

أمام كلماتها الأخيرة اقتربت من الطفل وحملته من أحضانها وضممته كما لو أني استرددت عزيزاً كنت أفقده، لقد رأيت فيه تجلياً للحياة رغم الموت، إصراراً على البقاء رغم رصاص القناصين، أقعدني على قدمي وأنا أحمله ففيه رائحة أهله التي اخترقت أنفي فجأة بحضور الموت، ورحت أنتبه إلى أن تشكيل أنفه و اتساع عينيه كوالده تماماً، هناك مكان للتأمل وذرف الدموع أثناء الحروب والإضطرابات!

رحلت راما وكفى، وبقي الطفل وكفى، وبقي والده خارج البلاد وكفى، لم يعطوه فرصة تشييع رفيقته، لم يعطوه أو مساحة من الزمن ليقف فوق جثتها متذكراً قصة حبه العظيمة، لم يعطوه فرصة تعزية ابنه بالهمس بأذنه: ها قد رحلت أمك يا ولدي..

في الصباح كانت رائحة البارود تختزل المكان فارضة سطوتها على كل شيء و أنا أمر بجانب الركام المتبقى من بيتها، ماذا لو رآها القاتل قبل اطلاق الرصاص والقنابل، ماذا لو توقف لحظة وسأل نفسه كيف لقاتل أن يأخذ إذن نفسه بتبرير القتل و الإجرام..

على الطريق المحاذي لطريق الأربعين أتجه مباشرة بين المباني وحيداً بالسيارة التي استعرتها من الشيخ عبدالعزيز صباحاً بعد أن جاء ليطمئن علينا وليتناول طعام الفطور، كانت أصوات الرصاص وانفجارات الليل تعود لخاطري وأنا أعبر الطريق مروراً بالحاجز الموجود على الدوار

الكبير المعروف بدوار سباهى، تعود إلى خاطري كل الصور عن الحاجز الأول ولكن الإختلاف هنا يكمن في حملى لهوية مدنية أعطاني إياها عبدالعزيز قبل مغادرتي بقليل، قبل وصولي إلى الحاجز أتأكد من وجود الذواكر الرقمية في علبة السائق بجانبى منتظراً مرور بعض السيارات، يتقدم بي الزمن و أصل للعسكري الواقف هناك فأبرز له الهوية التى أحملها ودون تفتيش مررت بعد أن سألنى: أين أتجه؟

كانت الطريق كما تركتها مع اختلاف بسيط أنها صارت اتجاهاً واحداً وعلى الطرف الآخر تتوزع مركبات الجيش من دبابات ومركبات نقل للجنود، يمتد بي الطريق طويلاً وتعود كل الصور الأولى عنه مرة أخرى دون اكتراث بكل ما يجول حولي من عسكر وقانون طوارئ فرحت أفكر بأمر آخر وقد اقتربت من جبل القرون أو كما يعرفه أهل حماه بجبل زين العابدين..

جبل زين العابدين لقد زرته عدة مرات فيما مضى من عمري، كان ملاذاً لوضع كل النوائب أسفل قدمى، هنا أقام الإمام على بن الحسين أو كما يعرف بكتب التاريخ الإمام زين العابدين وقد سبق وأن بحثت عن أصل هذه التسمية خلال دراستى ولقاءاتي المتكررة مع أشخاص رووا لي قصصاً تكون أقرب للخرافة عن ذلك المكان، فالجبل كان يعرف فيما مضى بجبل القرون حتى عام 61 للهجرة حيث جلس على سفحه أصحاب الرحلة العظيمة المذكورة في التاريخ لرفضهم أن يدخلوا مكبلين للمدينة فمكثوا هناك ما يقام عشرة أيام أو أكثر وهي المدة التي

كان يذهب بها البريد إلى عاصمة الخلافة دمشق ثم يعود، ومن يومها اتخذ هذا الجبل اسماً جديداً له مرتبطاً باسم الإمام زين العابدين الذي ارتبط به أيضاً مسقط رأسي الذي أتجه إليه الآن، حيث يقول الرواة أن المدينة كانت تحمل اسم (الطيبة) وعندما مرّ بها الموكب في رحلته خرج الأهالي للقاء أصحابه وقد أكرموهم في المقام والمنزل فدعا الإمام لهم لعل الله يطيب ثراهم ومن يومها تبدل اسم المدينة ليكون طيبة الإمام كما أغلب المدن العربية التى تلتحق بأسماء الرجال..

هاهى أمامى، كرومها تظهر من بعيد، و ألقها كما كان منذ تركتها، لها بهاء لا يشبه أي مدينة في الريف أو الحضر، أدخلها بعد أن توقفت على الحاجز في مدخلها فأعبر سكة الحديد القديمة التى فاوض عليها الجنرال غورو في انذاره الشهير للسوريين، أعبرها كما يعبر الطفل أولى خطواته نحو المدرسة، فيها قضيت ثمانية عشر عاماً من عمري، لي فيها أهل و أحباب و ذاكرة لا تنسى، في كل زاوية لي مشهد لا ينتهى، فيها الشعراء والأدباء والعلماء والأساتذة و الشيوخ و الأولياء و الشياطين و أصحاب مقاعد الدراسة والشارع، فيها كل ما يتمنى المرؤ..

السيارة الغريبة تثير الريبة في المدينة فيسير بجواري بعض الشباب على دراجاتهم النارية ويشيرون لي بالتوقف فأجعل سيارتي يميناً وأقف بجانبها حتى اقترب منى بعضهم..

- من أنت؟
- أحد الناس.. أنا

- ما تتخوت.. إحكى لوين رايح..

- أضحك وأدير ظهري وأركب خلف المقود فأسمع صوت تلقيم مسدس في يد أحدهم..

- أيها الأحمق.. تعال معى أو امشى خلفى لتعرف من أكون!

ربما هيبة الموقف وتصرفي دفعهم لمطاوعتى والسير خلفى وأمامى والسيارة تعب الشارع الرئيسى الكبير، أقترب من بيت جدي لأمى وأعبره متجهاً لبيت والدي، لا أحد يعرف أننى قادم أبداً..

عشر دقائق كاملة لم أتوقف فيها بينما كنت كل لحظة أنتبه لمرآة السيارة اليمنى حيث يظهر الشبان خلفى، هذه مدرستى الإبتدائية وهنا درست الثانوية، رأيت حيطانها التى أصبحت مطلية ما يقارب عشر مرات، ففى كل مرة يدخل الجيش يعيدون طلاءها من جديد بعد أن تتزين بعبارات النصر والحرية والشتائم الكبيرة.

في هذه المدينة ثمة ملائكة تصول وتجول منذ سالف الأزمان فهى وادعة يانعة جميلة هادئة على خلاف مدن الريف المحيطة بها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأبنائها هيبة لا تستطيع فهمها إطلاقاً فمن شرب من مائها يشعر بالتعميد من الماء المقدس. تنقسم المدينة إلى قسمين رئيسيين يمتدان على كتف الشارع الرئيسى الطويل الممتد من ضفاف العاصى غرباً حتى الشارع الدولي الواصل بين دمشق و حلب شرقاً، يتوسطه دواران، الأول يعرفه الناس بدوار البلدية والثاني يعرف بأنه الدوار الشرقي، ذاع صيت بعضهم بسبب ولائه المطلق للنظام الحاكم في

البلاد من خلال ارسال التقارير التفصيلية عن شركائهم في المدينة وكل ما يتعلق بتحركاتهم و لقاءاتهم حتى وصل الحال كما سمعت ذات مرة أن أحد المخبرين كتب تقريراً يتهم أحد المرشحين لرئاسة مجلس المدينة أنه يمارس الجنس أربع مرات في اليوم!!

هذه الفئة جعلت من المدينة قسمين متباعدين أحدهما لا يحترم الآخر ويقف على مسافة منه فلايتزوج منه ولا يعطيه أصواته في أي مناسبة كانت، لأحجارها ذاكرة لا تنسى أبناءها أبداً فقد حدثتنى أمى ذات يوم عن رياض الخطاب الذي تم اعتقاله خلال أحداث 1982 م حيث رأته أمى وهم يجروه لسيارة الجيب حيث اختزلت في خيالها المشهد كما وقع فهى تذكر لي دوماً أن رياض كان يلبس قميصاً مقسماً إلى مكعبات و بخطوط متقاطعة حيث أخذوه من محله انطلاقاً من عدائه للدولة!!!

كنت أشتم رائحة الخوف في نبرة كلام أمى وهى تتحدث عن بعض مشاهداتها من دخول الجيش في تلك الفترة، فهذه البلدة ضمت بين جنباتها عدداً كبيراً من الثائرين الذين رسموا بدمهم تاريخ البلاد ولكنهم لم يستطيعوا تغييره أبداً و ربما بدأت القصة بشعبان الخطاب القائد في البحرية الذي أتاه اتصال هاتفى مكان خدمته في الساحل السوري بضرورة قدومه إلى العاصمة لأمر هام و رغم استشعاره بالمكيدة و رغم اصرار مرافقه أبو فراس على الإتجاه به للحدود العراقية هرباً من الموت إلا أنه فضّل مواجهة مصيره كاملاً و إسدال الستار.

قبل أن أصل بيت أهلي تتراءى أمامي صورة الضابط في غرفة التحقيق وهو يقول لي أنت من بلد شعبان الخطاب!

كانت بمثابة التهمة أن أنتمي لبقعة جغرافية ضمت يوماً ما رجلاً تم اتهامه بالإتصال بجهات في تركيا والعراق لقلب نظام الحكم في البلاد، ربما هي لعنة الحرية التي جعلت أغلب صوره وبقايا ذكرياته تختفي في مغارة قديمة بعد اعتقاله بفترة بسيطة حيث قام أهله بإرسال كل ما يتعلق به إلى المغارة الجانبية لمنع اعتقال شخص ما موجود معه بالصدفة ضمن الصورة فضاعت معظم المقتنيات بين ركام التاريخ..

أمام بيت أهلي يتوقف الشبان اللاحقين بي، بعد أن أدعوهم للدخول يتذكرون أن في هذا البيت شاب مهاجر منذ زمن بعيد ولابد أن يكون أنا وأمام صمتهم كنت أنحني على يد أمي لأقبلها وأحتضن أخوة لي أعرف حجمهم ومكانتهم في هذه الدنيا..

حالة الذهول التي انتابتهم لا يمكن أن توصف فكيف لي أن آتي إلى بلاد أغلب من فيها يسعى إلى الخروج منها، لحظات من البوح الطويل كانت كافية لأفهم أن خمس حواجز تقع على الطريق الدائري المحيط بالبلدة، وقد تفننت هذه الحواجز بأساليب التفتيش والتعذيب، فرحت أروي لهم كل ما حصل معي..

في لحظات الحروب يكون اللقاء مع الأهل و كأنه هرباً إلى الحياة، هرباً من الموت إلى الأمام لا أكثر، في غمرة لقائي معهم كانت هناك أخبار عن رجال ابتعدوا إلى أماكن النزوح بعد أن اشتدت الحملة الأمنية على

المنطقة وكنت أستغرب من خروجهم فكيف لثائر اختار طريق الثورة والغضب أن يخرج ليجلس في عواصم العالم؟!

زرت المكتب الإعلامى فرأيته مشابهاً لذاك الذي شاهدته في بابا عمرو، شبان بعمر الورد يعملون ليل نهار في أصعب الظروف كى ينقلوا الصورة التى يراها العالم على اتساعه..

ثلاثة أيام من اللقاءات المتواصلة والنقاشات العديدة التى أوصلتنى إلى وجود ثلاثة تيارات كما كل البلاد، كان كل منهم متشبث برأيه متمسك به لا يقبل التنازل عنه إطلاقاً.

مصطفى شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره تقريباً يقف ضد العمل العسكري فهو مع التظاهر السلمى و النضال الثوري السياسى دون حمل السلاح و توجيهه لأبناء المؤسسة العسكرية أو الأمنية و حجته في ذلك عدم القدرة على ضبط السلاح بيد الشعب بعد سقوط النظام، أما عمر فقد حمل السلاح منذ وقع الاستهداف الأول للمنطقة معتبراً أن هذا النظام لا يذهب إلا بالقوة، بينما ظلّ خليل على ولائه المطلق للسلطة الحاكمة رافضاً أي مظاهرة أو أي عمل مسلّح فهو يكتفى بالإصلاحات التى لا حاجة لها أصلاً من وجهة نظره بينما كان هناك طيف واسع من الناس يلتزمون الصمت وهم ثلة كبيرة لمست منهم تخاذلاً أو جبناً في الحديث والإشتراك بالإحتجاجات أو الإستهزاء بمطالب الثائرين على هذه الأرض بينما هرب قسم آخر خارج البلاد.

قبل النوم كانت أمي تجلس معي لنتحدث ببعض التفاصيل التي تخص العائلة بينما حاولت مراراً الإتصال بزوجتي ولكن عبثاً كانت محاولاتي في ظل انقطاع الإتصال الكلي والتام عن المنطقة، في الحقيقة اشتقت للنوم في مخدعي القديم في قلب الغرفة المنزوية الوحيدة على كتف البيت الأيمن، هناك ترتاح روحي تماماً بالرغم أني نهضت على صوت انفجار قوي يهز جدران البيت ويجعل الأرض تمور بينما سقط شباك المطبخ في الركن البعيد، أنظر إلى الساعة لقد قاربت الثالثة والنصف صباحاً وصوت الرصاص في الخارج يسيطر على كل شيء، الأطفال صاروا أكثر وعياً بالآلات العسكرية فهذه بي تي آر وهذه ناقلة جنود وتلك LA39 وغيرها من التسميات التي لم أستطع حفظها اطلاقاً.

في فترة الإضطرابات التي تصيب البلاد يسعى الإنسان لتصفية حساباته القديمة وكل ما هو عالق بذاكرته، على امتداد المناطق التي مررت بها كان هناك تصفية حسابات وهنا حالة لاتختلف كثيراً عن المدن الأخرى..

منذ فبراير من عام 1982 م نشأت بذور عداوات لم تنتهي إلى اليوم فمن هنا ولد من يعرف بالأشهب الذي اتجه للعمل بالمقرات الأمنية في ذلك الوقت وقد طاله الكثير من الحديث حول الفساد والتورط بالدم حيث كان يعلن عداوته للمجتمع وولاءه المطلق للدولة حتى وصل به الحال ذات نهار أن يمنع رفع أذان الظهر في المدينة فهو المتسلط على مقدراتها والمتحكم بمصائر رجالها، عرفت فيما سبق كثيراً من العائلات

التى دفعت له مبالغ طائلة في ذلك الوقت كى تعرف خبراً واحداً عن أحد أبنائها المفقودين في الزنازين المظلمة أو السجون الصحراوية التى انتشرت في البلاد وكلما كان المبلغ أكبر كان الخبر أهم، من هنا نشأت تلك العلاقة الجدلية بين طرفين أحدهما يمتلك كل شيء و آخر لا يمتلك شيئاً إطلاقاً سوى رحمة الله، رأيت الأشهب في حياتي عدة مرات و لحسن طالعى وحظى أني لم أضع يدي في يده يوماً ولم أصافحه أبداً حتى لم أتذكر أني ألقيت عليه السلام في غابر الأيام بينما كان أولاده وأولاد أخيه يسيرون بذات خطاه على نفس الطريق في العمل بالمقرات الأمنية والتوق للتحكم بمصائر العباد..

أصغر أولاده يكبرني بشهرين أو يصغرني بشهرين وقد حمل من والده الكثير من صفاته وخصاله التى كنت أمقتها، ففى ذات ظهيرة قريبة حيث جلس الأشهب في قلب متجره على الشارع الرئيس في المدينة دخل عيه شاب لم يتجاوز الثلاثين عاماً وأفرغ في جسده عدة طلقات نارية أردته قتيلاً فكشّر أبناؤه وأبناء إخوته ومن والأهم عن أنيابهم وبدؤوا حملة حرق لبيوت الواقفين ضد الدولة، المطالبين بحقوق الناس في الحياة أو ما اصطلح على تسميتهم بالناشطين..

إنها سياسة الأرض المحروقة التى اتبعها كثير من الجنرالات في حروب التاريخ السابقة فإما أنا أو ليكن الطوفان من بعدي، بلحظة من الزمن مباغتة مختلسة كل الماضي آتية به إلى الحاضر قاتلة كل ما كان من ألم

و ذل، أربع رصاصات أو أكثر كانت كافية لإشعال كل الحرائق وإسقاط بعض الأجنة وتشريد كثير من الرجال..

مع بداية الاحتجاجات دخلت مع ناجي والنابلسي في نقاش طويل حول مفهوم الثورة وضرورتها وحاجتها في هذا الزمن الرديء، قال لي ناجي إن هذه الإنتفاضة ستؤدي حتماً إلى ظهور طبقات مسحوقة من المجتمع ودفاع طبقات مسحوقة أخرى عما وصلت له من أعطيات ومكرمات النظام القائم، اليوم رحت أتذكر ذلك الكلام وأنا أرى عائلة الأشهب المسحوقة اجتماعياً وثقافياً وسياسياً تدافع بشراسة مطلقة عن كل ما يمسها أو يمس مكتسباتها الإقتصادية أو الإجتماعية ضمن الدولة، محمود أحد أبناء اخوته هو مشروع مجرم بإمتياز، قصر قامته يدفعه دوماً لرفع رأسه علّه يكون يوماً بين الرجال، بينما حاول دوماً أن يخفي ضربة سكين قديمة على خده الأيمن ولكنه عبثاً كان يحاول، عندما كنت أرى بعضهم يداهنون له قبل سفري كنت أمقتهم وأمقته بينما اليوم هو يكشّر عن أنيابه ليثير الرعب كما الدبابات تثير الرعب بين الناس، لقد تجاوز كل الخطوط الحمراء حتى وصل به الحال إلى الوقوف على أبواب المساجد منعاً للصلاة كما فعل عمه قبل ثلاثة عقود، هو التاريخ يعيد نفسه والفرق بينهما أن هناك من يفكر اليوم بالتخلص من محمود وليس الإنتظار ثلاثة عقود أخرى!

في ليلة الخميس التالي كان التجهيز لمظاهرة الجمعة فاشتركت معهم، لقد قسّموا أنفسهم مجموعات متوافقة وبتنظيم شديد كان أسامة ومحمد

وأحمد يحملون الأقلام ليبدؤوا بكتابة الشعارات التى تم توزيعها سلفاً على قطع القماش الكبيرة التى جلبها كل من حمزة وخالد بينما انشغلت بعض الصبايا بالرسم على وجوه الأطفال لتكون اللوحة أكثر إشراقاً، لقد صار كل شيء جاهز تقريباً فيتم نقل اللوحات واللافتات والأعلام إلى نقطة الصفر التى تمثل إلتقاء جميع الخارجين من صلاة الجمعة قرب المؤسسة القديمة ليتم توزيعها هناك وبذات الحماس المرافق للعمل الذي قمت بتصويره كاملاً كان يتم نقل الأغراض..

في صباح الجمعة كنت عازماً على زيارة قبر نبهان فخرجت من تلقاء نفسى مشياً على الأقدام على ذات الطريق التى مشيتها حين كنت طالباً في مرحلتى الإعدادية، بجانب مدرسة البنات أمشى ثم أنحرف يميناً لأمر من جانب أقدم مدرسة في البلدة حيث درس أبي ومنها أهبط شرقاً حتى تظهر أمام عينىّ تلك الشواهد البيضاء العالية فأنحرف جنوباً لأدخلها، ثمة شيء قد تغيّر هناك كثير من القبور الجديدة وعشرات القبور المفتوحة للهواء، فارغة كإناء يستعد لتلقى وجبة الحليب الصباحية، لقد اعتاد الرجال على الموت هنا فقلت في نفسى لا يخاف الرجال على الرجال..

لايخاف الرجال على الرجال يا نبهان، فهل تكفيك قطعة من الآس على قبرك وبضع آيات من القرآن؟ وهل يكفى أن أقف أمامك مستعداً حاملاً معى وردة وعطراً وسواكاً عالي الجودة والقيمة علّك تغفر لي تأخري في تشييعك؟ نصف ساعة هل تكفيك أيها الراحل بعيداً حيث أردت؟

كانت صلاة الجمعة قد قاربت فذهبت للمسجد حيث امتلأ عن آخره بالنفوس الغاضبة، كنت أشتم رائحة الثورة تحرق كل شيء والغريب أن الإمام كان يخطب عن الإستقامة في الدين وكأن ما يحدث خارج حرم الجامع يقع في دولة أخرى بعيدة جداً عن حدوده الجغرافية، بينما يغوص الإمام في تعاليم الإستقامة كنت أرحل إلى أحد أصدقائى في الغربة حيث دخلت معه في نقاش طويل حول دور المؤسسة الدينية في هذا الحراك وكيف انتهج زعماؤها مبدأ الصمت أمام ما يحدث، سألته يومها وهو سليل عائلة معروفة بالتقى والورع في بلاد الشام: لماذا لا يتم إعلان الجهاد في البلاد؟ ببضع كلمات جاوبنى و انتهى الموضوع..

مع انتهاء الصلاة وقف شاب وبدأ بالتكبير وانطلقت المظاهرة حاشدة إلا بعض من إلتزم الحياد ومضى إلى بيته وكأن الأمر لا يعنيه إطلاقاً، بدأت الحشود تتجمع ووصلت إلى نقطة الإلتقاء حيث وصل بعض الشبان قبلهم لإخراج اللافتات بينما ذهب قسم آخر من المسلحين إلى مداخل المدينة تحسباً لوقوع أي هجوم غير متوقع من الحواجز المحيطة بالمدينة.

الهتافات تعلو ومعها النفوس ترتفع شامخة بذاتها، غالبيتهم أعرفهم وتربطنى بهم علاقات وشيجة منذ أيام الصبا، كانت نفوسهم تتحرر من قيودها وهم يشدون على أكتاف بعضهم البعض، والهاتف بينهم يرتقى ليرفع صوته بينما يردد الجميع خلفه وأنباء المجازر والقتل تتناقلها كل الفضائيات ووكالات الأنباء والصحف اليومية، النسوة على الطرف

المقابل لدهشتهن بأبنائهن يقفن بينما اصطف رجال وشبان آخرون على الضفة الأخرى للبحر الهائج غير عابئين بما يحدث فاكتفوا بالفرجة على تحرر الآخرين..

في المظاهرات تنشأ صداقات جديدة وتنشأ علاقات حب جديدة و تقوم صلات اجتماعية جديدة، في المظاهرات تقام الصلوات الصامتة و تلقى الخطابات الصامتة و النعوات الصامتة، في المظاهرات يصبح للحنجرة سبطانة كالدبابة تماماً فهى تقتل وتضرب وتدمر وتسقِط نظاماً وتقيم نظام، كذلك تستطيع رؤية كل شيء بوضوح دون أي زيف فتعرف الشجاع من المدسوس خوفاً على وضعه الإجتماعى، فإما أن تكون مع الثورة وإما أن تكون مع الإمعات كما قال لي الشيخ محمد.

الشيخ محمد تفاجأت بوجوده بعد أن انتهت المظاهرة فقد كان سجيناً قبل سفري الأخير، يكبرني بعدة أشهر وقد جمعتنا أيام طويلة وما إن خرج من المعتقل حتى انضم إلى الجموع في سيرها نحو الحرية، تعانقنا مراراً و كأني أسترجع به زمناً مضى منذ وقت طويل بينما كان يسترجع بي لحظات اقتربنا فيها سوية من باب الجنة، محمد تم اعتقاله في شتاء عام 2006 م على خلفية انتمائه الإسلامى و دفع ثمناً لذلك سنوات طوال في سجن صيدنايا على سفوح العاصمة دمشق وله قصة ربما سيرويها عن حالات الإعتصام التى حدثت داخل السجن مرات عديدة وكيف جابهوها بتفجير أنابيب الغاز ليقتلوا ما يقتلوا منهم!!

في ساحة الحرية كما يسميها الناس هنا تجمع الرجال ليلقوا التحية بعد انتهاء المظاهرة وما هى إلا لحظات حتى صاح قادم من بعيد: لقد دخل الأمن.. لقد دخل الكلاب..

ماهى إلا دقائق حتى تكاد الساحة خالية من كل شيء فقد انصرف الجميع ركضاً وهرولة إلى بيوتهم، فقدوم الأمن يعنى نوبة تفتيش واعتقال وحرق للبيوت ومصادرة أملاك عديدة، هذه المفارقة خطرت ببالي في وقت سابق وأنا قادم إلى مطار دمشق الدولي في عام 2004م فقد أبلغت صديقاً كان يعرف عنصراً في جهاز أمنى بقدومى خوفاً من توقيفى وتأخيري فكيف يخاف الإنسان من جهاز أمنى هو موجود أساساً لخدمته؟! وإلا فماذا تعنى الأنظمة الشمولية!

حاولت أن أبقى لأصور مشاهد الدخول ولكنهم وعدوني بإيصالها لي كاملة، فهنالك من هو مختص بالتصوير في هذه المواقف، هربتُ كما كل الموجودين وما إن دخلت حارتنا حتى دخلت خلفى ثلاث سيارات كبيرة تقل جنوداً حيث توقفت في مدخل الشارع الطويل وبدأت عملية تفتيش عن مطلوبين لهم ومن الطبيعى أن كل من هو فوق الثامنة عشر فهو مطلوب، ففى مثل هذه الأوقات عليك أن تحترس من كل شيء فأنت عدو فعلى أو محتمل للنظام وبهذا ستجد نفسك كما قيل لي الشيخ محمد قبل خروجه من الساحة في مواجهة قوى تخوض حرباً ضدك فيكفى أن تكون شاباً حتى تعتبر مشبوهاً وفي الطرف المعادي وأن تصير هدفاً لرصاصهم.

في المنزل كانت أمي على عجل تغلق الأبواب وتخفي ما تبقى من نقود معها خوفاً من دخولهم ومع إصرارها الشديد على اختباء أخواي في البئر معي كوني لا أحمل هوية تؤكد انتمائي لهذه العائلة بعد أن عرفت أن هويتي قد ضاعت خلال سفري ولا أثر لها في البيت بينما الهوية التي أعطاني إيّاها عبدالعزيز كانت لشهيد قد ارتقى للسماء منذ زمن، فماذا يفعل غريب في هذا البيت سوى أنه لاجئ هارب من معركة لم تكتمل فرمى سلاحه ولاذ بساكني هذا البيت ودون مقاومة وافقت فوراً على القفز داخل البئر الفارغ منذ سنوات طوال إلا مما يقارب خمسة وسبعين سنتيمتراً من مياه المطر التي تجمعت خلال سنوات طوال إلا أن أخواي فضلا البقاء وقوفاً أمامها فإما أن يموتا كالأبطال وإما يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولم أكن أعي بعد أن في بلادي يموت الشرف ألف مرة قبل أن يموت الإنسان..

من كل حدب يهبطون، من فوق الجدران والأبواب يتناسلون كفعل الزناة ببعضهم، يدخلون الباب الخارجي فيطل عليهم أخي محمد وبيده كتاب كان قد سحبه من المكتبة قبل خروجه كي يتأكدوا أنه لم يكن خارجاً وقت المظاهرة، أشعر بأقدامهم تتعثر فوق الأرض، تسير فوق رأسي مباشرة ووقعها يهز جمجمتي بينما كانت روائح عرقهم تفوح في كل مكان كما رائحة الأشنيات داخل هذا البئر، كنت أحاول أن أتخيل وجوههم وهم مسلوبي الإرادة مغطوبي الأحلام والأفكار، منقضين على كل شيء بحثاً عن كل شيء كما الباحثون عن المتعة في شوارع المدن

المظلمة، تراهم يعاشرون الأرض، يزنون بها، تحبل منهم كرهاً وتضع أبناءها أمامهم كرهاً فيركلوهم بأقدامهم إلى مقابر جماعية تسمى السجون أو يعطوهم تذكرة ذهاب واحدة بلا عودة أبداً..

مهما كانت الرجولة فإنها تساوي في هذه الأوقات رصاصة واحدة لا أكثر أو قرار أحمق من عسكري يكفي لكي يقضي المواطن ما يقارب شهراً أو أكثر في السجن الإحترازي، أكاد أسمع همهماتهم وقهقهاتهم وإعتدائهم على الأشجار الواقفة فوق الأرض رغماً عنهم، يكسرون الباب فتخرج أمي وأخوتي دون نقاش يطلبون البطاقات الشخصية ويسألون عن متظاهرين أو مسلحين خلال تفتيشهم للدار غرفةٍ غرفة ثم يقتادون محمد معهم فتركض أمي خلفه:

- هذا دكتور.. هذا طالب طب اتركوه.. من شان الله اتركوه..

مجموعة أخرى تلتحق بهم وهي تجر أحمد من يده فتتجه أمي لفورها بينهم مطالبة إياهم بتركه فهو طالب ثانوية وليس له علاقة بأي مظاهرات.. وضاعت أمي بينهما..

خلال لحظات عجزي كنت أحسد البكتيريا الموجودة في تلك الماء الراكدة فهي قادرة على التعبير عن احتجاجها ورغبتها بسحق ما تريد فكيف لإنسان أن يختبئ في البئر ألا يفعل ما يريد، أمام إصرارها وظلام البئر ووقوفها أمام العربة المصفحة رافضة التحرك حتى تأخذ أبناءها أو تذهب معهم وبرغم دناءة ذلك الضابط وقسوته الواضحة من الكلمات

التى كان يستعملها في خطابه مع جنوده إلا أنه أطلق سراحهم بعد أن أتاه هاتف على عجل يخبره بضرورة انسحابه لاعتبارات أمنية!

عادوا ودخلت أمى معهم ومدوا لي حبلاً حتى خرجت من أسفل الأرض وأسفل أقدامهم بكيت لعجزي بينما انشغل أخى الطبيب بتدخين سيجارته الأولى أمام الجميع وكأن الدنيا كلها لا تساوي شيئاً في عينيه..

احتضنتهم لحظة خروجى من جديد للحياة وكأن شيئاً لم يكن، هناك إصرار على الحياة برغم كل هذا الدمار، أضرار البيت عندنا قليلة إذا ما قورنت بالهجمة الشرسة والتكسير وتخريب المؤن والغذاء في البيوت المجاورة الأخرى، وقتها كانت هناك ابتسامة تخرج من الدكتور قائلاً:

- أمى هى الجيش الحر الخاص بي.. ماذا كنت سأفعل لولا وجودك من المؤكد أني كنت ذهبت للسجن..

- قلت لك تعال انزل معى إلى البئر!

نضحك رغم الحزن ورغم الأنباء المتواترة عن اعتقالات أخرى عديدة، قررنا تجاهل كل شيء بصمت مطلق خرقه هو بالحديث عن نظرية المجرم عند لومبروزو حيث أخبرني أن العالم الإيطالي وصل إلى اكتشاف أن الإجرام لا علاقة له بالسلوك بقدر ماهو أمر يعتمد على الحالة الخلقية للجسم البشري فالإنسان المجرم يتميز بملامح خاصة توفرت فيه عن طريق الوراثة ولا نستطيع إدراكها إلا بالتشريح!

لم أشأ أن أعلق على هذا الكلام فالقاتلون لا يكتسبون القتل بالوراثة بحسب قناعتي وإلا لكان نصف البشر من هابيل مجرمون وقاتلون للنصف الآخر من أولاد قابيل!

***

الرحيل الأخير

طيلة ليلى هنا كنت أفكر بها فقد زارتنى مرتين بالحلم برغم كل الحواجز المحيطة بالمكان، برغم أحذية العسكر ومناظرهم الليلية جاءتنى لتعدني بالحب الأبدي كما كان، و مع إشراقة الشمس دون انقطاع الرصاص طول الليل كان الموت يجدّد شبابه كل لحظة ليطل على الأرض ببؤس كبير وبفم مفتوح لابتلاع العدد الأكبر من ضحايا اليوم، أول أمس كان تجهيزاً للمظاهرة من الجميع وأمس جابت المظاهرات كل الشوارع واليوم لتشييع الشهداء. لكل شمس شهداء جدد في هذه البلاد، كان جميع من قابلت يخاف من دخول الشبيحة أو تواجدهم والصورة النمطية للشبيح تبدأ من عضلاته المفتولة بشكل انسيابي متقن مروراً بصدره المنفوخ وشعره المحلوق تماماً وانتهاء بلحيته السوداء وحذاء الرياضة الذي يرتديه بقدميه، كنت أراهم حين كنت صغيراً يمرون بسيارات دون أرقام واضحة أبداً ويحملون ما طاب لهم من خيرات و يتابعون طريقهم دون أن يقف رجل في وجههم فالوقوف يومها يعنى الموت أو الإعتقال إلى الأبد..

هى حقيقة أني أسير خلف جثامين أشخاص كانوا بيننا منذ ساعات وأصبحوا في عالم آخر ليس فيه شبيحة وقوى أمن أو قانون طوارئ، كان جميع الماشين خلفهم يؤمنون بمستقبل أفضل موقنين أن هذا الطريق طويل ولابد من تعبيده بأرقام عديدة من الشهداء والمجازر الجديدة، لوجوههم

نقاء لا يمكن أن يلحظه إلا من يختلط بهم، يرن هاتف مصطفى على عجل بينما انشغل عمر بإطلاق الرصاص في الهواء احتجاجاً على كل شيء، يحاول أحدهم كفه عن إطلاق النار ولكن كانت طلقة رصاص القناصة أسرع بكثير، خلف أذنه مباشرة دخلت الرصاصة لتستقر في داخل جمجمته أمام أعين الجميع، انتفض عدة مرات ثم أسلم الروح في المقبرة، كاقتراب فراشة من النار اقترب حدّ الإحتراق ثم غادر بعيداً لقبر جاهز لشهيد متوقع بأي لحظة..

لا أعرف وأنا أتابع عملهم ضمن مركزهم الإعلامى لماذا أخذت جهازاً وفتحت بريدي الإلكتروني وطبعت رسالة من ناجى وضعتها في جيب معطفى ثم تجولت في حسابي على الفيس بوك حيث توقف العقل والدم وفتحت عيناي أمام ثلاث كلمات كتبتها هى على صفحتها حيث قالت:

- صباح الخير يا وطنى..

دارت بي الدنيا وشعرت بالكرة الأرضية تمور من تحتى وترفعنى ثم تضعنى من الأعالي، لقد ما زالت على قيد الحياة في مكان ما من هذه الأرض، كان الجميع متخوف من عملية اقتحام جديدة بينما حاولت أن أخفى كل ما اعتراني، ففى هذه البلاد دوماً هناك تهم جاهزة لأي مواطن فإما تقويض الشعور القومى والإضرار باللحمة الوطنية والإتصال بجهات خارجية أو داخلية معادية للدولة والإنتساب لعصابة الإخوان المسلمين العميلة أوتحقير رئيس الدولة وشتم النظام الحاكم وأخيراً برزت تهمة

جديدة هى التظاهر، وتحت هذه الأبواب المتعددة غاب كثير من السوريين في غياهب السجون سنوات طوال.

سمعت كثيراً عن قصص الإعتقال والقتل بدم بارد وأخبار مجازر جسر الشغور وإدلب وداريا وبابا عمرو تقض مسامعى بينما هناك رسالة عاجلة تدعوني للقدوم والعودة على وجه السرعة.

في الحروب والثورات هناك مساحة دائمة لتجارة السلاح واختراق القانون بأساليب عديدة، فالفرق بين السراب والحقيقة هى عوالق الماضى وترسباته وشعورنا بالأمل والألم تجاه كل ما يحدث حولنا، السفر سيكون على عجل لأسباب طارئة بينما حاولت الوصول إلى البيت كان هناك من سيرتب لي جواز سفر جديد من حلب وهناك من يرتب لي آلية الوصول إلى مطارها الدولي ومغادرة البلاد، في طريقى إلى البيت أسأل نفسى: ماذا لو أعطى هؤلاء الفرصة في إدارة البلاد فأي روح ستسكنهم في خدمة الآخرين.

الطريق الذي مشيته مرات و مرات من قبل كانت حجارته تحتفظ ببقايا صور لشبيحة وقاتلين و مرتزقة عابرين ومتظاهرين غرقوا بين كلمتى (الشعب يريد) و نازحين لم يحملوا من مزايا النزوح إلا الاسم فقط.. بينهم كانت عيناي تجول لتلتقط صوراً تختزن قصة ثورة بينما عقلى الروائى يرسم قصة متخيلة من نسيج واقعهم الذي صنعته عبارة (الشعب يريد)..

أذكر أني قلت للنابلسى يوماً أن ماوتسى تونغ طلب من الصينيين طرد العصافير عن الأشجار حتى لا تأكل المحاصيل.. و تحت تعاليم الحكم

الشمولي فعل الصينيون ذلك ولم تعد العصافير تقترب من الأشجار فاستمرت بالطيران دون طعام حتى تعبت وسقطت ميتة فانتشرت الحشرات وأكلت المحاصيل كاملة، النابلسي وناجي وشهم وعبدالعزيز وعامر ومروان وأم شهم وراما وأبو حيدر والشيخ محمد وسعيد المحمود وأقبية المخابرات والحاجز الطيار ونبهان وهي لا يغادروني وأنا أفتح باب البيت كي أدخل وأقف أمام الشباك المطل على الشارع..

رسالة ناجي بيدي، بينما انشغلت أمي بترتيب بعض الأشياء رحت أستعيد كل المشاهد والصور من جديد متأكداً من وجود الذواكر الرقمية كاملة ففيها قصة شعب وحياة وموت ومواعيد في المقبرة..

هناك ما ينتظر وهناك أرواح مدفونة تحت أراجيح الأطفال في حدائق امتدت على كل الوطن، هناك تاريخ ينهار وحضارة تذهب بنيران المدافع وهمجية القاتلين وهناك من يظل صامتاً أمام كل المجازر التي حدثت والتي تحدث باستمرار!

كل شيء يبدو في انتهاءٍ عندما سمعت جرس الهاتف يضرب بينما صاح الطرف الآخر بعدة جمل متتالية بالكاد كنت أفهم بعضها، أقفل الهاتف وأقف مشدوهاً أتابع الخبر العاجل الذي تصدر كل قنوات الأخبار عندما..

يتبع..

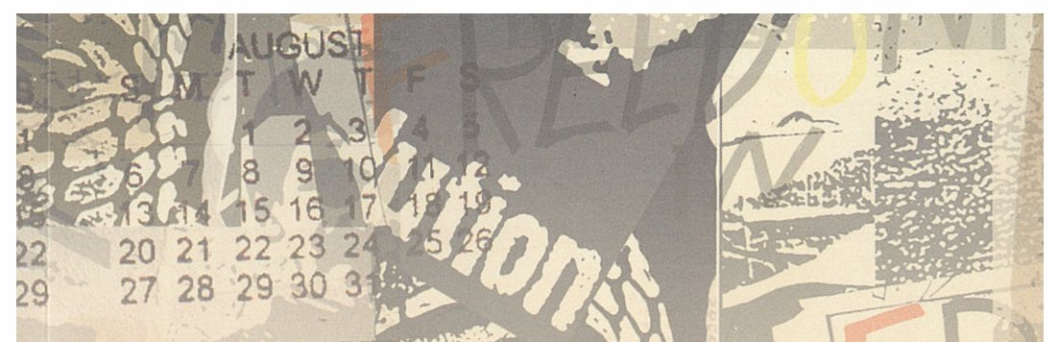

(أيام في بابا عمرو) ليست رواية عن الثورة والوطن والبشر وهتاف الحرية وإرادة التغيير التي تفرزها عقود الصمت وحسب، لكنها رواية عن المفارقة الأساسية التي تصوغ مأساة السوريين منذ عقود، تلك المفارقة التي تصنع أرضاً للشعب وأرضاً للعسكر، دون خطوط تماس فاصلة لا في الحقوق ولا في الواجبات. إنها رؤية بانورامية للحظة تغير الجغرافيا وولادة التاريخ، إطلالة على هواجس بشر يعبرون بكل ثقل آلامهم الماضية، وكل تضحياتهم الحاضرة نفق التغيير، مترقبين شمساً جديدة، يختزلها عبد الله مكسور بعبارة تراجيدية متفردة (لكل شمس شهداء جدد في بلادي).

محمد منصور
كاتب سوري

قد يختلف البعض مع مؤلف الرواية وروايته، وقد يراها البعض رواية حقيقية، وقد يتهمه آخرون أنه قد باع روحه وقلمه، وكل سيكون موقفه متأثرا بحجم المأساة التي تعانيها سوريا، مع النظام أو مع الثائرين أو مع الشعب، لكن لا أحد يمكنه أن ينفي أن ما يجري مأساة كبيرة، وأن الضحايا هم الخاسرون، وأن الشعب هو من يعاني، ولكننا بالتأكيد لن نختلف أن من واجب المبدع أن لا يقف صامتا أمام مأساة يعيشها شعبه

زياد جيوسي
كاتب فلسطيني

فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان – الأردن – تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan . dar_fadaat@yahoo.com

9789957303938